رؤيـــة

أيمـــن جـــبر

أخلاق الأتوبيسات

النخبة

أخلاق الأتوبيسات

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

1442 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 14093 / 2020

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 838 – 546 – 6

الكتاب: أخلاق الأتوبيسات

المؤلف: أيمن جبر

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

23 شارع عبدالخالق ثروت – القاهرة – الدور الثالث

تليفون: 20223926449+

201096124252+

البريد الإلكتروني: info@elnokhbapublish.com

زورونا على موقعنا: elnokhbapublish.com

الفيسبوك: النخبة للطباعة والنشر والأبحاث

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع فى مصر

أخلاق الأتوبيسات

أيمن جبر

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

المقدمة

لنتخيل الإنسان وقد فقد التحكم في أعضائه، تنفلت من يده اللكمات ومن فمه اللعنات ومن قدمه الركلات، ويحجم حين يجب الإقدام، ويَخذل المستغيث، ويُغمض عينيه حين تجب الشهادة بالحق، وعقب كل انفلات يتساءل متحسرا... كيف وصل بي الحال لهذا الانحدار؟.. يعيش مغمورا في الذهول والألم، لا تطيب له الحياة ولا يُسمى في الأحياء.

لنتخيل نفس الإنسان في جَوف الأتوبيس، ليس وحده! إنما في ساعة الذروة وفي أكثر خطوط المواصلات ازدحاما وهو يتأرجح إلى الأمام والخلف تحت ضغط حركة الأجساد المتلاصقة والمتساندة ولا يفلح في الوصول بيده إلى ركن ركين يتشبث به ليتماسك، الروائح المختلفة والغير عطرة تقتحم أنفه حتى يكاد يختنق والأجساد تسبح في العرق

الغزير، ويال سواد يومه لو ابتلي بمتحرش أو بسيدة بدينة ترميه شذرا وباتهام! لا شك أنه مهما عانى فسوف يتحمل تلك الدقائق الكثيفة حتى يصل لمحطة الوصول، حتى لو كانت تلك الملحمة هي روتينه اليومي فهو قنوع بالإجازة الأسبوعية كفاصل ثم يعود.

ولكـن... مـاذا لـو تسـببت حماقـات النـاس وأنانيتهـم وسـلبيتهم وجبنهم في حدوث حالة من اكتظاظ وتزاحم وتشـابك العواطف، الأحاسـيس، الأفكار، النيـات، المخاوف، الظنـون، والأهداف... فأصبحت أتوبيسية؟

١) «أخلاق الأتوبيسات»

عندما تصل الحافلة إلى محطة نقل الركاب، هناك عوامل تتحكم في سلوك الركاب وأخلاقهم، عندما يكون عدد المقاعد مساو لعدد الركاب، سوف ينبعث بينهم عبير: «الإيثار، والحِلم، واحترام المرأة والطفل، والشهامة، ومكارم الأخلاق»، وعندما تكون المقاعد أقل من عدد الركاب بدرجة مقبولة؛ هناك أمل أن تستمر نفس الحالة الأخلاقية بين الركاب، أما عندما تكون الحافلة ممتلئة عن آخرها، قعودًا ووقوفًا وعلى السلالم، بينما في الخارج يوجد العشرات الذين يريدون الصعود بأي ثمن لكي يصلوا لمصالحهم، هنا تَنضغط الأخلاق وتُمتحن، فلا يَنجح سِوى أندر النوادر، وهم الذين تشبثوا بوعيهم وعزلوه عن الواقع شديد الانضغاط والحرارة.

وتحت سيطرة مشاعر التهديد والخيار الوحيد، يصارع الإنسان الزحام للصعود، وفي طريقه يدفع النساء والأطفال، وفي نفسه غير مصدق تلك القسوة والخشونة التي تنفلت منه.

هذا السيناريو هو التفسير لما هو عليه حالنا، تدور أخلاق مشوهة بين أغلب الناس، كل واحد يتبرأ من الآخر، يوبخ الآخر، يَضيق بالآخر، يسيطر الشعور بأن تلك الأخلاق المنضغطة هي أصل أصيل وجينات وضيعة في الشعب، وأن الحل الوحيد أن يقوم كل فرد بنفسه بمهمة مراجعة ضميره الفردي وتقويمه،

وهذا الحل يُعتبر مستحيلًا، فلا توجد أمة استقامت أخلاقها اعتمادًا فقط على الضمير الفردي، لابد من عامل ضابط من الرقابة وإتاحة الفرص بدرجة معقولة من المساواة، وبهذا يغمر الشعب الشعور باليأس، ونتيجة لتوهم الفشل؛ تنتشر بين الجميع كلمات ومشاعر جلد الذات.

مناخ القِلة، وخاصة التي تصل لدرجة الندرة، يُفسد الأخلاق ويَنشر «الحرص، والقسوة، والطمع، والنفاق»، يُضعف الضمير وتتكون فئة تستأثر بالقليل المتاح، وتنال شرفًا مزيفًا، ثم تستعلي به على بقية المحرومين، فيتولد صراع نفسي قد يتطور لصراع مادي وبدني بين الناس.

مناخ الوفرة، على العكس من مشهد القلة، تمتلئ النفس بالرغبة في الحياة، التعايش المشترك، تبادل الود والعون، تنبعث روح الشهامة والكرم، تعم الأخلاق الفاضلة، يرحل عن دنيا الناس أخلاق الجُبن، والنفاق، ورذائل الأخلاق.

في كتاب «خاتم في إصبح القلب» لعبد الوهاب مطاوع، يستعرض قصة كتبها «تشيكوف»، وهي لطبيب متوسط الحال في قرية، في الرابعة والأربعين من عمره،

ظل ثلاثة أيام يحاول إنقاذ طفله الوحيد ذو الست سنوات من حمى الدفتريا، أسلم الطفل روحه بين يدي أمه المريضة والمنكوبة، في تلك اللحظة طرق بابه شاب ثري، أخبره أنه بينما هو وزوجته وصديقهما يتناولون الخمر، أُغشي على زوجته، فتركها مع صديقه وأسرع إليه لطلب إسعافها، ورغم علم الشاب بالمأساة التي حدثت منذ دقائق،

قـام بالضغط عـلى الطبيب ليأتي معـه، حيث لا يوجـد طبيب غيره، يذهـب معـه الطبيب، ويصعـد الشـاب إلى زوجته ثم يهبـط جَزعًا، يخبر الطبيب أن زوجته وصديقه قاما بتلك التمثيلية ليهربا معا، أخذ الشـاب يَهذي ويَنتحب ويَشكو مأسـاته، قال له الطبيب: «وما ذنبي في قصتك هذه، ابني مات وزوجتي مريضة ولم أنم منذ ثلاثة أيام!»، فلما أسهب الشاب في الهلوسة والثرثرة تحت تأثير الصدمة القوية، قال له الطبيب: أنتم معشر الأثرياء تغوصون في حياة الرفاهية وتستحقون ما يحدث لكم من خيانات وأفعال شـيطانية، ذُهل الشـاب لرد فعل الطبيب غير المتوقع، سأله باندهاش عن معنى كلامه هذا، فانفجرت ثورة الطبيب المَكلوم أشـد عنفًـا، وراح يواصل هُجومه العنيف على الشـاب وطبقته المُرفهـة وآلامها المفتعلة، قاطعه الشـاب مدافعًا عن نفسـه، وقـال: أنا تعس مثلـك! فيضحـك الطبيب باحتقار سـاخرًا من هذه التعاسـة المزعومة التي لا تقاس بتعاسـة التعسـاء الحقيقيين في الحيـاة، ويتـأزم الموقف بينهـما إلى أقصى حد حتـى كادا يتضاربان بالأيـدي، وتبلغ الأزمة قمتها حين ينثر الشـاب أتعاب الطبيب على المائدة، فيقذف الطبيب بها على الأرض رافضًا هذه الإهانة الجارحة، ويتطور سيناريو التراشق بالإهانات.

يخرج «تشـيكوف» بالحكمة التي أراد أن يُلقنها لنا: «التعساء أنانيون ظالمون قسـاة القلب، وأقـل قدرة على فهم بعضهم بعضًا، التعاسـة لا تجمع بل تفرق! وتشابه البلوى الذى نعتقد أنه يزيد الارتباط بين الناس، يبعث أحيانًا شرورًا قوية بسـبب عدم قدرة الفرد على تحمل مأساته ومشاركة مآسي غيره ولو بالعاطفة المجانية».

المثل يقول: «المصائب يجمعن المصابينا»، ولكن الإنسان ضعيف وله طاقة، وعندما يُمتحن كل إنسان بمأساة تثقل كاهله، يتباعد الناس، ويَضعف التواصل المادي والعاطفي بينهم، يغوص كل منهم في داخله، ويبرز الأنا وينفرد.

ليست القلة فقط تمرضنا بأخلاق الأتوبيسات، ولكن الأحمال الزائدة في الحياة، تضعف الأخلاق وتُلين الضمير، وربما ينهار.

مَرَّ زمن انتشرت فيه ظاهرة ضحايا طوابير العيش، كان الناس يتزاحمون أمام الأفران لينالوا نصيبهم من الخُبز المدعم، ومن المعلوم أن صاحب المخبز يخبز جزءًا بسيطًا، ثم يقوم بتسريب عدة أشولة دقيق ليبيعها لمحلات الخبز غير المدعم أو لمحلات المخبوزات والعجائن، ونظرًا لحرص الفقراء على أن لا يقعوا في المشهد المحبط حينما يقول لهم الخباز: «العيش خلص»، فيحدث تزاحم وتشاحن وعراك، وفي حالات ليست بالقليلة يتطور انفلات الأعصاب إلى درجة جَرح أو قتل أحدهم.

وفي هذا المشهد هناك طريقتان لضبط هذه المشكلة، الأولى الرقابة التموينية، وهي كانت مستأنسة ومعصوبة الأعين، والثانية: أن يقوم الأهالي بأنفسهم بمنع تسريب الدقيق، فيقوم الشباب برصده وهو يتسرب من الباب الخلفي وإبلاغ الشرطة أو يتجمهر الناس وتفتضح الجريمة، ولكن هذا أيضا لم يحدث، الذي كان يحدث هو الاستسلام للمناخ الأتوبيسي وما يفعله بنا.

وتكـرر نفس المشـهد مع أنابيـب البوتاجاز، وسـقط قتـلى، والكل يعلم أن هناك أنابيب تُسرب إلى سماسرة يقومون بتوصيلها للأهالي المقتدرين بثمن أغلى، وإلى أفران القطاع الخاص.

هنـاك نكتـة تقـول إن إحدى السـيدات حينـما كانت تنشر الغسـيل بالدور العلوي، انفلت المشـبك من يدهـا، فقامت في حركة عصبية لا شعورية بمحاولة الإمسـاك بالمشبك فاختل توازنها فسقطت من أعلى فكان حتفها.

سـواء كان الحتف بسـبب مشـبك، أو خبز، أو أنبوبة، سوف يكون الثمن فادحًا، والسبب بسيطًا وأحيانًا تافهًا.

الأخـــلاق الأتوبيسـية مثـل الغـاز المثير للأعصـاب، لا حـل له سـوى الكمامـة، والكمامـة التـي يجـب أن تسـتخدم هنا هـي كمامة «الوعي والتعاون».

الوعي يقاوم التهديد المباشر للأنا، ويستدعي الإيثار، والإيمان، والنبل، ويبتكر وسائل للتغيير بضغط مجتمعي، وكلما زاد الأبطال النبلاء الذين يقدرون على هذا الجهاد، كلما كان لهم تأثير في الناس وقوة.

التعـاون يُقصد به أن يحاول الناس معًا تنظيم أنفسـهم، فمهما كانت الظـروف ضاغطـة، فلابـد مـن أن نعلـم أن انفلات تلـك النفوس يزيد الأمر سوءًا، ومثلما ينصح به في حالات الطوارئ، مثل: الحريق أو الزلـزال، فلـو تُـرِكَ الناس للهلـع والذعر، فسـوف يتصادمون، ويتزاحمون، ويتسـاقط بينهم القتلى والمصابـــون، ولكـــن الهدوء، والوعـي، والتعـاون يجعلهـم جميعًا يمـررون تلـك اللحظة الحرجة ويخرجون بسلام.

٢) «الكلب اللي بيهوهو»

عندما كان صغيرًا، كان ثقيل الظل «عيل رخم».

عندما يشاكس أحدًا وخاصة فتاة، كانت ترد بالسباب المَغموس بالاحتقار مع خروج اللسان: «تكلم براحتك؛ الكلب اللي بيهوهو، ما حدش بيرد عليه».

ينظر إلى وجهها فيقرأ في حمرته غيظًا شديدًا، وهذا يعني أن «الهوهوة» لها تأثير، فيستمر في الكيد.

لا أدري لماذا يخطر ببالي هذا المثل هذه الأيام، فالوجوه أصبحت خشبية، لا تستطيع قراءة ما فيها من انفعال، وكأنك تصرخ مناديًا في داخل كهف مظلم. وهذا يؤكد أن النفوس تختزن كثيرًا من المشاعر، تقبض على خطيرٍ من الأفكار والآراء في خزانة الوجدان، ووضعت عليها حجابًا كثيفًا غليظًا يمنع أن يُفشي ما به، أو أن يُسمح لمن في الخارج أن يَسبر أغوارها.

كما يقول المثل: «كلام من رصاص مقابل جسد من نحاس».

هل هو الخوف؟

هل هو اليأس من التفاهم؟

هل هو الشعور باللا جدوى؟

هل هو رفع الراية البيضاء لتحديات الحياة؟

هذا عَرَض خطير لمرض مخيف، فاحمرار الوجه وتغير الملامح والصراخ وحتى العنف، كل هذا يعتبر علامة على حياة ونشاط في الداخل، أما الصمت الرهيب، والسكون المهيب، والبرود الثلجي، يُجمد «الهوهوة» في الفؤاد وعلى اللسان.

لكن لا بديل عن الهوهوة!

في إحدى المحاضرات لأستاذة علم الاجتماع «هبة رؤوف»، قالت: «عندما كان يحدث شجار بين مصريين، كان يتطوع تلقائيًا رجلٌ شهم ليتوسط بينهما ويمنع الصدام. يقول لهما: «صلوا على النبي!».

ويستمر في إلقاء كلمات التهوين من سبب الشجار، والتذكير بما هو إنساني ومشترك بينهما. حتى ينتهي الأمر إلى أن يفيق الجميع لرشده.

هذا الرجل الذي يقول «صلوا على النبي!»، اختفى من مجتمعنا. فأين ذهب؟))

أجاب أحد الطلاب ساخرًا: «بيصور الحادثة بالموبايل؛ كي ينشرها على «الفيس» كحدث حي)).

هذا نموذج لتغيير جوهري يحدث في مجتمعنا. هناك فوضى وارتباك في الحواس والمشاعر!

هل يعقل أن تُعرض وردة بلدي على إنسان، ثم يقول: «ما أزكى رائحتها! وما أجمل ألوانها! ثم نجد الإنسان نفسه تُعرض عليه سمكة متغير شكلها ورائحتها من العفن، ثم يقول: «ما أحلاها! وما أزكاها! وما أطيب ريحها ومذاقها»!.

هل هذا إنسان متزن؟

العجيب أن من يسمعه ويراه في الحالتين، لا ينقده ولا يُنكر عليه ولا يندهش!! بل يشهد له أنه متناسقًا في قوله وميوله.

ما هذه الظاهرة؟

وما هؤلاء البشر؟

ما هؤلاء الذين لا ينكرون ولا يندهشون!

المزاج أصبح عكرًا. والميول أصبحت مشوهة. وأصبحت بلا قاعدة يُقاس عليها أو يُرجع إليها. وتاهت الفطرة.

أصبحنا نلمس تناقضًا ومطاطيةً في: «الضمير، والمشاعر، والحسابات، والقيم، والنظرة، والعطاء، والمنع».

وهل المطاطية إلا بذرة خبيثة ودقيقة من النفاق؟!

٣) «سؤال على عصبٍ مكشوف»

كان لي صديق وزميل في العمل، وكان قليل الأصدقاء؛ نظرا لأنه يطرح التساؤلات بمجرد ورودها على الخاطر، دون أن يفلترها أو ينزع عنها أشواكها، كان ينكر علي أنني دائمًا في أي وقت فراغ من العمل المباشر أنشغل بكتاب في يدي بينما يشتبك الزملاء في حوارات متعددة لا تنقطع، وأنا بجانبهم وأكاد لا أشعر بهم.

في تلك الأيام، هجرت الروايات والكتب غير الدينية، وتفرغت للقراءة من صندوق واحد ومن المكتبة الدينية فقط، وكنت أظن أنني أستغني بذلك عن أي قراءات أخرى خارج الصندوق.

وعلى حين غرة، وجدت صديقي ينخلع من حديثه معهم ويوجه لي سؤالًا طاف بخاطره طويلًا ولم يعد يحتمل ألا يطرحه.

قال لي:

- السباك ينال رزقه من السباكة، والطبيب من الطب، وأنت من الهندسة، فماذا تنال من القراءة؟

حاولت أن أجيب، وأشرح، وأضرب أمثلة، ولكن لم أستطع أن أشفي فضوله بجواب مقنع، فهو يريد إجابة شافية تحول المحصول إلى مال أكتسبه من القراءة.

لم أفلح في إقناعه، لكني لاحظت أمرًا آخر، بينما كنت أجيب على سؤاله كنت متوترًا وعصبيًّا، وكلما زدت في محاولة الإيضاح والتبرير، كلما زاد توتري في ذلك الوقت، عزوت هذا التوتر المتصاعد إلى الفجوة المعرفية والثقافية بيني وبينه، وأن العيب فيه هو، فمثله يصعب عليه أن يفهم قيمة الثقافة ولا يرضى لأي شيء إلا أن يدر مالًا كعائد له.

استراح ضميري لهذا التفسير المتعالي المغرور؛ لعجزي عن إقناعه، ولكني لم أستطع ابتكار تفسير يريحني ويقنعني، حتى فهمت فيما بعد.

مرت سنون وأصبحت أقرأ في كل اتجاه وخرجت من الشرنقة التي كنت فيها؛ سألني صديق آخر نفس السؤال، ولكن بأسلوب مختلف. قال:

- قد كنت كما تقول داخل الصندوق، وكنت راضيًا عن نفسك ونحن راضون عنك، واليوم تدعى أنك قرات خارج الصندوق، فكيف ترى إيمانك، وموقعك، ومشاعرك وأنت خارج الصندوق اليوم؟

أجبته دون تفكير وبكلمات قليلة:

- أرى إيماني لم يكن حرًّا وأقرب لليقين كما هو اليوم، كنت أحمله فأصبح يَحملني ويهديني. كنت أعيش له فأصبحت أعيش به وفيه. كنت أُشمِّر له فأصبحت أسبح فيه. كنت أجعله فِلترًا لمحبتي ونصرتي فلا يمر خلاله إلا المسلم، فتوقفت عن إهانته، وجعلته دنيا مفتوحة تسع كل الناس. كنت أعادي به؛ باسم

البغـض والعـداوة في الله، فتوقفـت عـن الغـرور والادعـاء، واسـتبدلت العـداوة بالرفـق والرحمة بـكل البـشر. كان ضيقًا فاتسـع، كان منقبضًا متوترًا فانبسـط، كان يغمرني شعور العبد الغارق في الإثم اليائس من الطهر، البعيد عن الرضا، المسـتحق دومًـا للـوم والتوبيخ، فأصبحت حرًّا من هـذا الجهل، فصرت أرى ذنـوبي تجـاه ربي، قطـرات عـرق تتسـاقط مـن بشريتـي، وتُغسَـل بطهـور التوبـة والإحسـان، صرت أرى ذنوبي في حق الناس هي الخطيئة العسيرة على التطهر، فبعدت عنها واجتنبتها كما تُتجنب خمر الدنيا والشرك بالله.

ضحك مني ثم بسط يديه متمثلًا كعازف للكمنجة، ليصدر موسيقى وهمية، لتلحن كلماتي التي رآها شعرًا مصطنعًا وكلاما بلا عمق.

فقلت له:

أما وقد اسـتهنت بكلامـي وأهنته فإليك الخلاصـة: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ (البقـرة: 256)، و﴿ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ (البقـرة: 113)، «الحسـاب يوم الحساب».

كانـت وظيفـة أحـد العـمال الضغـط عـلى جهـاز التحكـم لماكينة، ثـم يقـوم السـير المتحـرك بعدهـا بنقـل المنتجـات مـن مـكان إلى آخـر، فـإذ بالعامـل بعـد تشـغيل الماكينـة؛ يقـوم بتحريـك ودفـع المنتجات بنفسـه فوق السـير، فيعرقلها ويُكدسـها ويُتلفها بتدخله، ولـو تركهـا وفعـل فقط مـا عليه؛ لسـار الأمـر على الغـرض الذي خصصت الماكينة له. ثم في نهاية اليوم يتساءل العامل:

- لماذا هذا العرق والإجهاد الذي نالني؟ ولماذا الفشل؟ فوظيفتي مريحة، كيف تجهدني هكذا؟

هـذا بالضبـط هـو سر توتري عندما سُـئلت السـؤال أول مرة، فقد كنت أبذل مجهودًا اسـتثنائيًّا في القـراءة الدينية وفي بذل الجهد لديني ولتطهير نفسي، وكان السر المسـتتر وراء حَرجي، أنني بالفعل مُجهد للغايـة، رغم هذا المجهود المعـرفي الضخم ورغم المجهود التطهري القاسي، لم أنل الشعور بالرضا عن نفسي والإنجاز لي أو لديني.

كانت هناك ثغرة مستترة في فهمي، تطيش بها سهام أعمالي، وتهدر بها جهود التزامي وطاعتي، هذه الثغرة هي أنني كنت مثل هذا العامل، كـما يقول المثل: «أطبل في المطبـل»، ثم يضل عني ما هو واجب علي فعله، وسر هذا الشعور هو فهمي أخيرا الكثير من قول الله تعالى:

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (سـورة ق الآية: 45).

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۚ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾ (سورة الأنعام: الآية 107).

لم يجعل الرسول حفيظًا، ولا وكيلًا، ولا مسيطرًا على الناس، وجعله مبلِّغًـا، وهاديًا، وداعيًـا، وهذا هو سر عدم توتر الأنبياء في دعوتهم، أنهـم يعرفون حـدود رسـالتهم، فأصبحت أقـول ولا أحرص على تلقي الاسـتجابة بالقبـــول أو الـــرفض، لأنني أؤمن أن الإنسـان حر في الإجابة عـــن سؤال الإيمان، والحساب يوم الحساب.

٤) «هموم السجين»

عندما وقعت في يد مصطفى أمين مذكرات لزعماء تاريخيين، تحكي عن تجربتهم في المنفى أو في السجن، أصابته صدمة شديدة، كان يتوقع من هؤلاء الأبطال أن يسطروا في هذه المذكرات – فقط– كلمات البطولة.

صُدم عندما قرأ رسائلهم إلى ذويهم، وقت أن كانوا في سجنهم أو منفاهم، دُهِشَ أن انحدرت بحدة مفردات الخطاب، هبطت الطموحات إلى الحضيض، وجدهم لا يتكلمون عن الحرية التي ضحوا من أجلها وسجنوا، لم يوجهوا نداءً إلى من وراءهم إن أصروا على كفاحكم، فحلم الحرية يغطي على أي ألم، وأي قيود ثقيلة تكبلنا!

ولكن قرأ في رسائلهم الإلحاح والتأكيد على أن لا ينسوا: «زيادة عدد الملابس الداخلية لأن البرد قارص في الزنزانة، وأن يرسلوا إليهم مبيدًا حشريًّا، لأن الحشرات تحول بينهم وبين النوم، وإرسال إبرة وفتلة! ليخيطوا ثيابهم المهترأة!».

ظل السؤال مُلحًّا وحائرًا في نفسه، ولم يحصل على إجابة، لماذا لم يجد ما ينشده من دروس في الوطنية، والتضحية، والفداء في تلك الرسائل؟

بعد ذلك سُجن «مصطفي أمين» في العهد الناصري، وعُذِّب تعذيبًا فوق الطاقة، كان مريضًا بالسكر، وعندما كان يمنع عنه الماء، كان يلحس بلاط دورة المياه ليرطبه.

كان سجنه أكبر خطأ استراتيجي، فالكاتب هو الذي يُخلِّد التجربة بقلمة حين يعجز الكل عن التعبير، ولهذا مرت الأزمة وقام بتأليف سلسلة «سنة أولى سجن، وثانية سجن، وثالثة سجن».

في سجنه ومحنته جاءته الإجابة عمليًّا، والتي استوعبها كاملة.

في سجن «تزمامرت» بالمغرب عام 1973-1990م، يروي «صالح حشاد»، قائد مدرسة الطيران، وأحد الناجين من السجن: «كان في السجن عنبران، يحتوي كل عنبر على 28 سجينًا، وكل عنبر عبارة عن غرف حبس انفرادي متجاورة، حصد الموت في العنبر الآخر أربعة وعشرين سجينًا، ولم يتبقَ حيًّا سوى أربعة، كان من حظ عنبرنا أن مات فقط أربعة، يرجع ذلك لتنظيمنا أنفسنا للتغلب على خطة الموت المعدة لنا، ثم تقرر ترحيل الأربعة المتبقين من العنبر المقابل إلى عنبرنا، دخل علينا منهم رجل طويل الشعر حتى منتصف الجسد، نحن لم نستحم ولم نحلق شعورنا منذ ثمانية عشر عامًا، كان جسده منحنيًا، لا يكسوه أي طبقة من اللحم، كما يقولون جلد على عظم، هذا الرجل كان عاريًا تمامًا، كان البرد تحت الصفر، فما كان منه إلَّا أن قال:

- لا يفل الحديد إلا الحديد، وسوف أتحدى البرد بالبرد!

وخلع ما عليه من أثمالٍ بالية وظل عاريًا ثمانية عشر سنة، قام بتمارين من اليوجا للتحكم في إرادته وأعضائه، كان ذلك

سببًا في نجاته، كان آية من إبداعات الإنسان وإرادته التي لا حدود لها في تحدي الموت والتمسك بالحياة.

وهل مثل هؤلاء يتبقى لديهم طموح سوى البقاء حيًّا! إن طموحات وأحلام السجين: «النظر إلى السماء الزرقاء التي يظل شهورًا لا يراها، أن ترى عينه وجهًا بريئًا غير وجوه السجانين القاسية المشوهة، أن يجد قطعة قماش تغطي عورته وتمنع عنه التجمد، التجمد الذي وصل إلى مركز الدماغ وكاد يؤثر في وعيه وإرادته، أن يتمكن من التغلب على البق، والحشرات، والفئران، التي تزاحمه في الزنزانة، وأن ينام لدقائق بكامل جسده ممدودًا في تلك الزنزانة الضيقة، أن يحاول التوفيق بين ذلك الإناء الذي يستخدم للإخراج والشراب في نفس الوقت، أن يقرأ كتابًا يحرره بخياله من سجن الجسد.

هذه القصص تنبه الإنسان إلى أن يتريث حين يحكم على أبطال الحاضر والماضي، فلابد من إدراك أن الأبطال بشر، وأن تخيل أن كلهم ينظرون شزرًا وبكبرياء حين يلمع أمام أعينهم بريق السيف الذي يوشك أن يسقط ليفصل رءوسهم عن أجسادهم هو تخيل ساذج.

ولو كان هذا الافتراض يصح في بطل واحد، حتمًا ستنهدم نظرية العصمة التي نمنحها لبقية الأبطال. فرفقًا بخيالنا ولنرحم أنفسنا بتضخيم صورتهم ولنرحمهم من تحميلهم ما هو فوق البشرية، لأننا إن لم نرفق بهم سنتخذهم أصنامًا، وسوف نُحمِّل أبطال اليوم ما لا يطيقون، وما لم يطلبوا منا أن نحملهم في إطاره، فرغم أن القصة لا تتحدث عن تنازلات الأبطال، إلا إنها تتحدث عن بشرية لا يستطيعون تجاوزها، فلا يوجد بشر يستطيع تجاوز بشريته.

٥) «الميراث في القرآن الكريم»

صادق مجلس الوزراء التونسي على مشروع قانون الأحوال الشخصية، الـذي يتضمن بنـودًا تساوي في الإرث بين الرجل والمرأة.

وهـي تعـد السـابقة الأولى التـي تقـوم فيها دولـة عربية مسـلمة - وبوسـائل ديمقراطيـة- بالتعديـل في الآيـات المُحكمـة المفصلـة في القـرآن الكريـم. جهلـوا أو جحـدوا أن السر في ثبـات الحضارة الإسـلامية قرونًا طويلةً، قد تأسـس على تلك الآيات المحكمة التي ضبطت العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم.

في روايـة (كبريـــاء وتحامـــل) لـ«جـين أوسـتن»، وهـي أشـهر الروايـات العالميـة التـي تُـدرَّس أكاديميًّـا، وتُنتَـج في السـينما العالميـة إلى اليـوم، القصـة عـن أسرة متيسرة تتكون مـن أب، وأم، وخمـس بنات، تقيم في ريـف بجوار لندن، وحسـب قانون الميراث لا تـرث الأنثـى، وفي حالـة وفـاة الأب سـوف يرث ابـن العم كل الثـروة، وبهذا تُطـرد الأم وبناتُهـا من كل أمـلاك الأب، ويصبحن بـلا أي مـورد للعيش، خمس بنـات وأمهن يُلْقَون إلى الشـارع دون رحمة، ونستطيع تخيل المأساة التي ستحدث لهن، وكثير من القصص الإنجليزية اعتمدت حبكتها الروائية على هذه القضية الخطيرة.

لنتخيـل خريطة العالم خلال تاريخ الإسـلام وعبر ما يزيد على ألف عـام، حيث المـيراث في غالبه ذكوري، بينما في بلاد المسـلمين وحتى

اليـوم، يُطبق نظام الميراث الذي ذُكـر في القرآن الكريم، حيث المرأة تـرث كابنة، وأخـت، وزوجـة، وأم. ثم صحـت أوروبـا في القرن الأخـير فقـط لتنـادي بالمسـاواة المُطلقـة، انتقال متطـرف من أقصى اليسـار إلى أقصى اليمين، والبشرية هي من تدفع ثمن الانتقال الحاد بين الطرفين.

الحجـة التي اسـتند إليها مجلس الـوزراء التونسي أن أحـكام القرآن في المـيراث صالحـة فقـط لنسـاء زمن نـزول القـرآن، ونظـرًا إلى أن المرأة اليـوم تتعلم، وتعمل، وتنفق المال، ومتـاح لها غالب المناصب الذكورية، فَينتفي سبب ما يَظنوه التمييز.

هذا الكلام هو اختبار حقيقي للقرآن الكريم، فلو كان ميراث المرأة يصلح أن يتغير حسب الزمان، والمكان، والحال؛ لما أحكمه وفصَّله.

السـؤال الحاسـم في هـذا الموضـوع هـو: حين تخـرج المـرأة للعمل هل يُرفـع عنها أحمال ومهـام الحمـــل والرضاعـة والعناية بالبيت والأسرة؟

نحـن نتكلـم عن المـرأة في كافـة كوكـب الأرض، ولا نتحدث عن بعض النسـاء اللاتي لديهـن «مرضعة، ومربية، وخادمة، وماشـطة، ومُدلكة، وراويـة حكايات قبل النوم»، نحن نتحدث عن المرأة منذ فجر التاريخ وحتى اليوم وحتى يوم القيامة.

أتذكـــــر مسلســـل أجنبـــي شهير بعنـوان «نساء يائسات» (Desperate housewives)، وأعتقـــــد أن التســـمية الصحيحة هي «نساء متدهولات ومحتاسات»!

إحـدى الأسر يضطـر فيهـا الزوجان لأخـذ قرار أن تعمـل الزوجة ويقـوم الـزوج برعاية الأولاد، كـم كان الوضع شـاذًّا! وكم كانت معاناة الطرفين! وكم كانت حيرة الأبناء!

نعم المرأة قد تصلح لكثير من أعمال الرجال، لكن هل يصلح الرجل لأعمال المرأة المرتبطة بطبيعتها! فالمسـاواة في الميراث ترتبط بالمساواة في المهام، وفرص العمل، والدخل، وأيضا بقية العوامل التي يدخل فيها طبيعة ومسئوليات المرأة والرجل.

ولكـي نختـبر صلاح الفكـرة من خطأهـا، ولكي نعي مـدى نفعها أو ضررها، يجب أن تُعَمّم وتتسع في خيالنا.

فلـو استسـلمنا للدعـوة التـي تنـادي بـأن أحـكام القـرآن الكريم كلهـا خاصـة بزمانهـا ومكانهـا وظرفهـا، فلابـد أن نتوقـع تعميـم تلـك الفرضيـة، وهـذا يعنـي أننـا لـن نكتفـي بآيـات المواريـث، بـل سـنمر بمشرط الجـراح أيضـا في كل اتجـاه، وليحـدث التقطيع في كل الآيـات المحكمـة والمفصلـة حسـب اجتهاد البـشر، ولنقوم باسـتبدال وإحلال وتركيب أطراف صناعيـة وإنبات أعضاء وزرع خلايا... إلخ.

ونتيجة لذلك، لن يصبح القرآن الذي نزل على خاتم الأنبياء محمد، ولا الإسلام الذي أُمر بتبليغه!

ولكـي أكـون أكثر واقعيـة، سـوف أنظر للخطـوة التاليـة لموضوع الميراث، في القرآن الكريم آيات مفصلة كثيرة صاغت حياة المسلمين ولم تُمس، وكمثال واضح وصارخ: آيات المحارم:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: 23).

لو تخيلنا أننا رضينا بالقاعدة المدمرة، وهي «ظرفية الآيات المفصلة المحكمة»، ما المانع من الاجتهاد أيضا في مثل تلك الآية التي لم تُمس أيضا إلى اليوم؟!

فنجمع بين الأختين، ويتزوج الرجل أمه وأخته، ويتزوج صديقه، وتتزوج المرأة صديقتها، ويجمع الرجل بين البنت وأمها، وهيا بنا نلعب!

هل أدركتم أنه سيناريو رحلة ذهاب بلا عودة؟

في القرآن الكريم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ (آل عمران: 7).

آيات محكمة مثل الميراث، والمحارم، والحدود، هي التي حفظت الإسلام وحفظت الآيات من أن تُمس.

في الغرب كمثال: أغنى كلب بالعالم اسمه «جونثر الرابع»، ورث من أبيه الكلب «جونثر الثالث» 60 مليون جنيه إسترليني، والذي كان ورثها بوصية من صاحبته الكونتيسة الألمانية «كارلوتا» التي

توفيت عام 1992م، وبعد استشارات عن طريق شراء عدد من الفيلات في إيطاليا، وجزر الباهاما، وطائرة خاصة، وأيضا شراء قصر «ميامي» من المغنية «مادونا»، زادت ثروته بالاستثمار إلى 227 مليون جنيه إسترليني، ويعيش الكلب جونثر حياة مرفهة في القصر، ففي الغرب يستطيع الحيوان الأليف أن يرث ثروة الملياردير دون عوائق قانونية، فيرثها كلب، أو قط، أو شجرة، وربما يقوم على خدمة الكلب عشرات الخدم من البشر، ويكون لهم راتب من الميراث كأجر لخدمة الحيوان، ويستطيع المرء أن يحرق ماله أو يفرمه!

هؤلاء القوم شطحوا في حرية الفرد، ولكن يستحيل هذا في الإسلام، فليست الحرية في الجنون والسفه، حيث أجاز جمهور العلماء الحجر على الرجل البالغ إذا لم يكن رشيدًا يُحسن التصرف في أمواله، أو كان مفسدًا لها، أو فاقدًا لعقله، أو أصيب بخلل، والدليل من الآية: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾(البقرة: 282).

أعطى الإسلام الحق في نزع الأهلية منه في التصرف في ماله!

السفة ممنوع!

السفه مرض!

هذا هو الإسلام، أحكامه هي الحكمة، ولا أجد لها نظيرًا في الأرض.

قرأت القانون التونسي الخاص بالمساواة في الإرث بين الرجل والمرأة. وما خرجت به هو:

في القرآن الكريم نظام كامل للميراث، فقاموا فقط بتغيير قاعدتين: «للذكر مثل حظ الأنثيين»، وقاعدة «ميراث الأعمام وغيرهم مع البنات»، واحتفظوا ببقية الأحكام.

أي أنهم لم يغيروا القانون القرآني كله، لَيْتهم فعلوا ليختبروا تمردهم! لقد فعلوا مثل من استعار ماكينة معقدة لم يفهم تركيبها الدقيق والعبقري، ثم قام عن جهل بتغيير فيها، تغيير يسبب إجهادًا للماكينة ويشوه منتج الماكينة!

سرعان ما سيدرك مدى خسارته وما أحدثه من تشويه وهَدر.

لماذا أبقوا على كل الوصفة وعملوا تعديلًا محدودًا، وإن كان جوهريًّا؟

الإجابة عندي أن الباعث نفسي وليس فكري، باعث يدل على رِقة في الإيمان وتغريب في الفكر، وهو لعب بالنار. فالميراث ظل مفتاحًا للأمان في المجتمع المسلم عبر تاريخه. واللعب فيه تجربة خطيرة، ونحن اكتفينا من التجارب الصبيانية المتهورة. كما أن الميراث الإسلامي بديع في توزيعه، يفتح فتحات في الميراث يخرج منها نصيب: للوالدين، والأعمام، والعمات، وبقية الأقارب.

نظام كريم وحكيم، وما قرأته في القانون التونسي أراه تحول إلى: سمك، لبن، تمر هندي، قص ولصق، وننتظر بإشفاق النتيجة.

٦) «حسب الله فيلسوفًا!»

تمتلئ الأفلام المصرية القديمة بمشاهد مُلهمة، في فيلم «شارع الحب» يكتشف قائد الفرقة الموسيقية «حسب الله السادس عشر» أنهم انجرفوا وراء أنانيتهم، ولم يفكروا إلا في مصلحتهم الخاصة، وذلك على حساب الشاب الموهوب - الذي قام بتمثيل دوره «عبد الحليم حافظ»- وهنا قال قولته الشهيرة:

«كل واحد يضرب اللي جنبه قلم»، قام كل منهم بصفع الآخر كعقاب وكوسيلة ليسترد الجميع صوابهم.

وكان مشهدًا لا ينسى.

عندما أتأمل واقعنا اليوم، أجد أن الأنا تسيطر علينا جميعًا بلا استثناء، ولكن نظرًا لأن لدينا ضمير لا يملك إلا أن يلتهب حين نتجاهله، فيلجأ غالبنا إلى معادلة تسكين الضمير، فنعادل أو نمزج بين شهوة الأنا وفضيلة التدين - «خلطة التدين الأناني»- فقد يكون الإنسان متدينًا... وهذا حسن، وقد يكون الإنسان أنانيًّا... لا بأس، لكن هذا المزيج المتمثل في الأناني المتدين شديد الخطورة! مثلما في الأحماض المركزة الشديدة الخطورة تتركب من عنصرين خاملين، ولكن عندما يتحدان تحدث المصائب والكوارث، لأن الأناني سوف يأخذ من الدين ما يُفيد تلك الخلطة أو التركيبة، وينام الضمير، وينشط الفساد ويَسرح في كل مكان تحت غِطاء.

يزور الابن والده يوميًّا ويجلس معه ساعة، يُقبل يده ورأسه، يدردش معه ويُضحكه ويُمطره بعبارات الثناء والعرفان، وعندما يُغادر يسأل أباه: «هل تريد شيئًا يا أبي؟»، فيشكره الوالد بابتسامة مترددة ومستحية، ولو التقت عين الابن والأب للسعته أشعة الحيرة، والحياء، والاستغاثة، التي تنبعث من عين أبيه، لتُكذب لسان الأب وابتسامته المصطنعة. يغادر الابن مستريح الضمير كالعادة، ويترك أباه أسيرًا للوحدة... أو الهم ... أو العَوز، ربما يحتاج الأب مالًا والابن متيسر، ولكنه الخجل والكبرياء، ربما الرجل الأرمل يحتاج زوجة تؤنسه، والابن يرفض ويمنعه، والرجل مجبر على انتظار وترقب النهاية، وكما يقول المثل: «وقوع البلاء أهون من انتظاره»، ربما يريد أن يحيا مع ابنه وأحفاده ويأنس بهم، ولكن زوجة الابن ترفض.

من هذه القصة التي هي من الحياة نجد الابن يُريح ضميره ويسد «ثقب البر»...«ببلاش!».

لأنه لا يَبر أباه بما هو في أمس الحاجة إليه، بل يَبره بمزاجه وبما لا يُكلفه شيئًا؛ وبما لا يفيد أباه بشيء.

هل هذه القصة تقترب من توضيح معنى التدين الأناني؟ لو كان الدين هو أبانا، هل نحن نبره كما يريد الله؟ أم ننفق عليه من «أبو بلاش؟»، ونَضن عليه بما هو في أمس الحاجة إليه؟

الثري الذي يكتفي بإسكات صوت ضمير تدينه بتكرار الحج، والعمرة، والصلاة بالمساجد، ويظن أنه بهذا يغسل ذنوبه دوريًا، لا يمكن مقارنته بالثري الذي ينفق ماله في المساهمة في بناء مدرسة، أو دعم ثقافة، أو توظيف شباب، فينفق من نعمة الله فيما يسد ثغرات المجتمع وينفع الناس.

الجندي عندما يترك الخدمة على ثغر لكي يقوم الليل، هو مضيع للأمانة.

عالم الدين عندما يعظ الناس بتوافه الأمور، ويترك جوهر الدين فيضيعه ويميعه هو عدو للدين ويطعنه في ظهره.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (البقرة: 267).

يجب أن ننفق من طيبات ما أنعم الله علينا، وننفقه فيما ينفع، فيما يسد الثغرات في المجتمع، وليس كما قال المَثل «نطبل في المطبل»، كلنا مطمئنون في الدائرة الدافئة الخاصة بنا التي لا ينقصها شيء، الأولاد ومسارهم في الحياة، الوظيفة والدخل المالي، الأمان الاجتماعي.

لم يُقصر أحدنا في تولى شئونه، فنحن موقنون أن من كافح من أجل أسرته فهو مجاهد، ولو مات فهو مع الشهداء! ونتجاهل أن هذا الدافع أغلبه غريزي، فيندر من لا يفعل.

ولكن ما زال الضمير ملتهبًا، ففي خارج الأسرة أو في خارج الدائرة المغلقة هناك انتهاكات صارخة، تفاوت طبقي شاسع، تخلف شديد، ظلم وإهانة، غربة وضياع. ولكل منا بَلْسمه الخاص الذي يضعه على الضمير الملتهب ليسكن.

هل تدرون ما هي كلمة السر المفقودة عمدًا أو جهلًا؟

قال أحد الحكماء:

«المجتمع والسلطة محشوران في كوب، والكلمة العليا للمجتمع»، «فكلما تمدد المجتمع تقلصت السلطة»، «وكلما انكمش المجتمع تمددت السلطة»، «حتى يكون المجتمع زائدة دودية».

عندنا مستويات ثلاثة من التفكير أو الهموم:

1- التفكير في الأمر الخاص.

2- التفكير في المجتمع وهو الأمر العام.

3- التفكير فيما يخرج إلينا من نفايات نشرات الأخبار، «وهي اللهو الخفي والإدمان الخبيث» نحن ننجز «الأول» بأنانية، ونتلهى ونخدر ضميرنا بالثرثرة والشكوى في «الثالث»، ويبقى «الثاني» يتيمًا منبوذًا متجاهلًا، ومَقضي عليه بالانحدار بلا قاع، لأننا تركناه للمسئولين.

نحن لا ننظر للمجتمع إلا بالنقد؛ فنَجلده بألسنتنا ونتبرأ من خطاياه.

وكأننا لسنا أبناء هذا المجتمع! ولا يخطر ببالنا أن المجتمع اللصيق بنا هو الأوْلى من أمورنا الخاصة.

فلا يفلح الخاص إلا بالعام؛ فالعام يقتحم علينا كل ذرة من خصوصياتنا.

الفقر، والكدر، والهم، والفشل، وبطلان السعي، وعصيان الأولاد، وتخلف الفكر والسلوك والأخلاق، وو...

كل الهـم والكـدر الخـاص لم يأتِ إلا مـن العام. فالعـام حين يكون حدائق وأزهارًا يتسلل عبيره للخاص، فيهدأ، ويرشد، وينتج.

والعـام حـين يكون طفح مـن المجاري وطـرق متعرجـة كلها حفر وأدخنة كثيفة؛ يتشكل الخاص على مثاله فيصبح عفنًا، وصلبًا، وبلا انسجام. بينما نحن ننتظر أن يصلح الخاص «أصحاب المعالي» الذين نراهم في التلفاز.

لم ولن يحدث!! «ما حك ظهرك مثل ظفرك»، لابد من أن نتعاون فنبحث عن «الأذى فنُميطه عن الطريق»، وما أكثر الأذى! فسـاد، وأشخاص، وأفكار، وسلوكيات، وأعراف، ونيات فاسدة، وقلوب خبيثة.

هل أقول لكم الحل الذي كتبت كل هذا الكلام من أجله!

الحل الذي أخشى ألا تأخذوه على محمل الجد فتنقلبوا على ظهوركم من الضحك!

هناك حلان:

الأول: أن نفيـق بالتـي هي أحسـن ونشـتغل معًـا في الـذي بأيدينا ويصب في المجتمع وليس في الأنا.

الثاني: هو ما فعله حسب الله السادس عشر في فرقته أن يقف شعب مصر كله صفًا من أقصى الصعيد وحتى شمال الدلتا.

وكل واحد «يضرب اللي جنبه قلم».

هناك احتمال أن الحرارة التي ستلهب الوجوه والاحمرار الذي سيشعل الخدود سوف يكونا الزلزال الذي نحتاجه لنسترد ضميرنا ووعينا.

٧) «القصير القزعة»

أتذكر ذلك المشهد الفكاهي من فيلم «مطاردة غرامية»، يشتكي المريض «الشديد القصر» إلى الطبيب النفسي - «عبد المنعم مدبولي» - أن الناس يُعيرونه ويستهينون به، وهذا سبب له عقدة نفسية، ويريد وسيلة تزيد من طوله، يأمره الطبيب أن يكرر تلك الجملة: «أنا مش قصير قزعة أنا طويل وأهبل»، يكررها وراءه ثم يقول له الطبيب: «كويس أهو أنت طولت اتنين سنتي!».

تكرار الجُمل هي حيلة نفسية تُستخدم لترسيخ الاعتقاد عن طريق زَرعه في العقل الباطن، وهذا الفعل يصبح شديد الضرر عند تكرار الجُمل السلبية، وعظيم الفائدة مع تكرار الجمل الإيجابية.

نحن نكرر بلا وعي جملًا سلبية مشابهة، مثل أن نقول:

«نحن شعب لا يصلح حاليًا للديمقراطية؛ لأننا لم نتلقَ تلك الثقافة» كأن الديمقراطية فقط ثقافة وليست ممارسة، نُكرر القول بأننا «نحتاج عقودًا كي نكون جديرين بالديمقراطية»، هذا بالإضافة إلى أن هناك فريق كبير من المسلمين يرفض الديمقراطية من منطلق ديني.

أنظر إلى كوكب الأرض فأشاهد معظم قارات العالم وغالب الجنس البشري يمارس الديمقراطية بمستوياتها المختلفة.

أسأل نفسي كيف هذا؟! أهؤلاء أغبياء! كيف لم ينتظروا مثلنا؟! إنهم يتناولون جرعة مضاعفة من عقار الديمقراطية

قد تهلكهم، كيف لم يسألونا قبل أن يتهوروا! كنا سننصحهم أن ينتظروا معنا النضج الثقافي واكتمال الوعي!

يجب أن نعلم أن الديمقراطية إن كانت قيراطًا من ثقافة فهي أربعة وعشرون قيراطًا ممارسة، مثل المواد التي ذات شقين نظري وعملي، يستحيل الحصول على أحدهما دون الآخر.

في بداية ممارسة فن أو خبرة، يكون الإنسان أخرقًا، قد يُتلف المادة الخام، قد يَجرح نفسه، قد وقد...

لكن مع الممارسة يُتقن ويَفهم ويُصبح غالب عمله غريزيًّا، كذلك الديمقراطية. تُمارس، وتُصحح، وتُراجع حتى تستوي على مسار صحيح.

هناك برلمانات في آسيا تنتشر لها مقاطع على اليوتيوب والنواب يتبادلون السباب واللكمات، ونحن نضحك منهم وعليهم، هؤلاء اتخذوا القرار الشجاع والحاسم بممارسة الديمقراطية وساروا على الدرب، وسوف يصلون للنضج بينما نحن نضحك!

الدليل على صوابهم أن هذا المشهد المضحك هو نفس المشهد لبرلمانات الغرب في بداياتهم. ثم صاروا إلى المنتج الأخير الراقي والمحترف الذي نراه الآن. يقول المفكر المصري الشهير «فؤاد زكريا»: في كل الدنيا، الشعوب تطالب بالديمقراطية والحكومات تقاوم مطالب الشعوب، بينما عندنا في الوطن العربي حالة فريدة جدًّا، فلأول مرة يتفق الشعب والحكام على رفض واحتقار الديمقراطية.

وبنفس الوسيلة نبرمج أنفسنا بأقوال نكررها مثل:

- نحن شعب متخلف بطبيعته.

- نحن شعب لا ينفعنا إلا السوط.
- نحن شعب في جِيناته الفساد.
- نحن شعب مُحتل منذ آلاف السنين.
- نحن ونحن....

عندما تقول للولد بغرض التربية:

لا تبكِ... لا تصرخ... لا تعض شفتيك! لا يفهم المخ البشري ولا يحتفظ إلا بالأمر المنهي عنه بعد إزالة أداة النهي، فيكون هذا النهي وكأنه أمر بالفعل.

فيفهم أنه يبكي، ويصرخ، ويعض شفتيه.

جرب أن تقول للناس لا تفكروا في «الفيل»!

تلقائيًّا سوف يقفز إلى الخيال صورة «الفيل»، ولا يسهل طرد الصورة المقتحمة.

علينا أن نكف عن ترديد الكلمات التي تجلد الذات وتبرمج وعينا الباطن؛ لأنها تحفر فينا كل ما هو سلبي.

لنكرر القول:

- نحن أولى الشعوب بالديمقراطية.
- نحن شعب في جيناته ميراث حضاري غزير.
- نحن شعب العلماء، والمفكرين، والرواد في كل المجالات.
- نحن شعب حرٌّ، وحيٌّ، وأبيٌّ.

يجب أن نعي ما يجب أن نقول وما لا يجب أن نقول، فالبرمجة تحدث تلقائيًّا من الأفكار التي نكررها بألسنتنا.

٨) «مغامر رغم أنفه!»

عندما أختار توصيفًا واقعيًّا ودقيقًا لحياة البشر، لا أجد سوى «المغامرة المستمرة»، ولكني لا أجد أحدًا يتفق معي في هذا الوصف، بل يعارضونه قائلين: «إن أندر الناس هو من يغامر بضع مرات في حياته، بينما الغالبية يُحجمون عن أية مغامرة، فالناس يؤثرون السلامة وطَهارة الثوب عن الانغماس في ما يُعَرِّضه للاتساخ أو التمزق».

ولكن ما هو الذي في حياة الإنسان ولا يُسمى مُغامرة؟

الزواج في حد ذاته أكبر مغامرة في حياة الإنسان، إن فشل يعيش الزوجان حياتهما بكدرٍ ويشقيان بها وفيها، وما أكثر التعساء!

وأيضا ما أكثر السعداء! ومع ذلك يندر من يُحجم أو يدعو الناس للإحجام عن الزواج.

من الكلمات الإنجليزية التي لفتت انتباهي كلمة «vulnerable» أي «عُرضة للانجراح بَدنيًّا أو عاطفيًّا».

يقصد بالتعبير «الطفل أو الشيخ الهَرِم»، فكلاهما يسهل إصابته ويحتاج عناية خارجية وانتباهًا كل الوقت، ولكني لا أحصر هذا الوصف في الطفل والشيخ الهرم، بل في كل بني آدم.

إن مجرد الخروج اليومي للعمل أو الدراسة يُعتبر مغامرة كُبرى، ركوب المواصلات يَحمل في كل ثانية مخاطر عديدة، الأخبار التي تأتي عَمن أصابته سِهام القدر بِجراح أو اغتيال لا تُعد ولا تُحصى، ولكنها أخبار بعيدة عن الخاطر بسبب الاعتياد وكثرة الناجين، ولا تُعقل، ولا تُستوعب، ولا تُتقبل، إلا بعد أن تُصيبنا أو تُصيب أحباءنا سهامُها.

فلان غرق في مصيف، يُفجع الجميع! لقد اختاره القدر من بين كافة الأولاد المُصيفين! كلهم غامروا ونَجوا، ولكنه كان خَيار القدر.

هل السائر في الشارع آمن؟

هل الكامن في بيته آمن؟

مئات الاحتمالات والسيناريوهات مطروحة ويتكرر حدوثها لآخرين، ومع ذلك أكثرنا يَعود سالمًا وأكثرنا يَبيت سالما ...أكثرنا وليس كلنا!

فكم من شباب ناموا نومتهم الأخيرة دون مقدمات أو إنذار!

هناك أمرٌ آخرُ، لو تقبلنا فكرة أن الإنسان بشخصه في مغامرة مستمرة، فلابد أن نتقبل أيضًا أن الإنسان في مغامرة مستمرة بفلذات أكباده وأحبائه! الأم وهي جالسة في بيتها - تُعِد لأسرتها غذاء شهيًّا تستقبلهم به حين عودتهم- تخاطر بكل أفراد أسرتها حين غادروا البيت لشئون حياتهم، كل الاحتمالات مفتوحة للجميع بسيناريوهات لا تُعد ولا تُحصى، فكلهم يغامر بنفسه وهي تغامر بهم جميعًا، وفي المساء تَحمد اللهَ أن اجتمعت الأسرة سالمة.

مـن يشـعر هـذا الشـعور دومًـا فليحمـد الله أن انتهـى اليـوم على خير!

كانـت أمي تُكثـر من دعـاء: «ربنا يقينا شر المسـتخبي عـلى غفلة»، وتقول: «أكثر ما يموت الشباب»... وهذه هي الحقيقة.

مغامرة في كل حال، ومع ذلك نخاطر ولا نحجم عن مسـيرة الحياة لأن هذه المغامرة هي سنة الحياة، فمن لم يغامر لم يحيَ!

محاولتـك لتجنـب مغامـرة مـا، لا معنـى لهـا لأنـك سـواء غامـرت أم لم تغامـر، فأنت تسـبح في بحور بلا شـاطئ وبلا قاع مـن المغامرة في أمورك اليومية، لكننا -ولسبب ما- لا نشعر بالمفارقة في أننا نُحجم عن المخاطرة فيما هو أقل خطرًا من تلك الأمور وأولى بالمواجهة!

ذهـب فتـى إلى المأمـون، الخليفـة العبـاسي، وقـال لـه: يقـول النبي صـلى الله عليـه وسـلم: «سـيد الشـهداء حمـزة بـن عبـد المطلـب، ورجـل قـام إلى إمـام جائـر فأمـره ونهـاه فقتلـه»، وظـل الفتـى يسـب المأمـون في وجهـه، وينعتـه بالظلـم والطغيان، فأمـر المأمون بقتل الرجل.

هـذه هي المغامـرات المجانيـة الطائشـة والتي لا يفعلهـا إلا الأحمق الذي يئس من الحياة ويريد لها ثمنًا في الآخرة، للأسف الذي يمنعنا مـن المغامـرة هو تخيـل مثل هـذا السـيناريو، فالكل يضـع في روعه أن المغامـرة تعني أن يرمي بنفسـه إلى التهلكة، ولكـن مغامرة الحياة تعلمنا أن أي خطوات قليلة نسـيرها يكون احتمال السلامة فيها هو الأقرب والأغلب، ويكاد يكون الأصل، وليس الأذى.

لم يستطع العلماء تفسير ظاهرة غريبة بعد حرب أكتوبر، وهي أن عدد من يتوفَّى سنويًّا بسبب حوادث السيارات والأمراض، وبسبب ظروف أخرى يَفوق من استشهد في الحرب، وهذا المعدل يتزايد سنويًّا، هذه الوفيات لم تكن زمن الحرب بهذا القدر، وكأن هناك راتب من المتوفين لابد أن يحصده القدر وسوف يتسلمه سواء بالحرب أم بالسلم! واليوم من يُتوفَّى في نفس الظروف أو بأمراض مزمنة لا يعد ولا يحصى.

الله تعالى لا يتركنا بلا ضابط ولا رابط في كل الأحوال، وهو يصلح ما تفسده مغامراتنا.

عقب الحرب العالمية الثانية، كانت نسبة الإناث إلى الذكور في روسيا، وألمانيا، وبقية أوروبا متفاوتة لدرجة مذهلة، ذَكر واحد مقابل عشرة، أو عشرين، أو خمسين أنثى، الغريب أن النسبة في أقل من عشرين عامًا أصبحت متساوية تقريبًا، فاقترب عدد الذكور من عدد الإناث! وهذا هو التدخل الإلهي في ضبط الميزان حين يختل بسبب حماقة البشر.

عندما يدخل بيتك مقتحم وأنت تسمع وقع خطواته ولا تجد الشجاعة لمواجهته فتظل مغمورًا بالغطاء مدعيًا النوم، فأنت أمام خيارين، إما أن تستمر في التظاهر بالنوم وتدعه يفعل ببيتك وأهلك ما يشاء، وإما أن تُحدث بعض أصوات الخَشْخشة كي لا ينعم المقتحم بالأمان التام، فقد يَرحل وقد يَقتصد فيما يسرق وينهب، ولكن أن توفر له المناخ «الرومانسي» المناسب للسطو والاعتداء، فهذه مبالغة في الحرص على الحياة.

في وسائل التواصل الإلكترونية - نظرًا لمعرفة الناس بأن هناك رقابة دقيقة- نجد النُكتة يتفاعل معها العشرات، بينما الكلمة الجادة تَمر على الرقيب الخاص لكل فرد - «ضَميره الأمنى»- فيظن أن التعليق أو إبداء الإعجاب مغامرة فيحجم عن ذلك، هذه مبالغة وشَطح في الاستسلام للخوف!

فعندما نحجم جميعًا عن التعبير عن رغبتنا في الحرية والعدل تظن السلطة المتجاوزة أننا تحت الغطاء نغط في نوم عميق، فيزيد الاعتداء وتطالنا المهانة والاستهانة، ونصبح مفعولًا به دومًا بلا مقاومة، وبلا اعتراض، وبلا ثمن.

أثناء سير أحدهم بسيارته في طريق عام حدث عطل بالسيارة، توقف بسيارته على جانب الطريق، وقام بجلب حجر كبير ووضعه خلف السيارة بحيث يراه الناس فيتحولون عن سيارته ولا يصطدمون بها، بعدما فرغ من إصلاحها انطلق بسيارته... تاركًا الحجر في مكانه!

ظلت السيارات تتجنب هذا الحجر دون أن يخطر ببال آلاف السائقين أن يتوقف أحدهم ليزيل هذا الحجر، ثم جاء الليل وحل الظلام ووقع المحظور فتعثرت سيارة في الحَجر وانقلبت وأحدثت تصادمات مع السيارات المارة بجانبها، فتناثر القتلى والجرحى في وسط الطريق في خضم الظلام الحالك.

كم من حجر يمر أمامنا يوميًّا ونُصوت على الموافقة على وجوده كأداة قتل محتملة، بتركه في مكانه؟

حجر «الرشوة، والفساد، والظلم، والانحلال»، نراه ولا ننكره، ويكون السكوت هو عين الموافقة على أن تكون تلك الأحجار هي الأصل.

لقد كان هذا الحجر اختبارًا لضمير الآلاف الذين مروا عليه وتركوه، وكانت الحادثة التي قتلت وجرحت الأبرياء عبارة عن قتل متعمد، وشركاء الجريمة هم واضع الحجر ومعه الآلاف الذين لم يتوقفوا ليزيحوا الحجر عن مكانه.

الأمر هنا ليس إحجام عن مغامرة خوفًا من العاقبة، بل وصف يصعب تسميته، ولكنه يبرر كل ما نحن فيه من بلوى، فما وقع أحد في بلادنا تحت ظلم، أو قهر، أو ابتزاز، إلا لسلوك من مجموع الناس يشبه ترك هذا الحجر.

في لقاء جمع الجالية المسلمة في أحد البلاد الأوروبية لمناقشة مشاكلهم في الغربة، قال لهم رئيس الجلسة: نحن المتسببون فيما يحدث لنا، فنحن لسنا منبوذين منهم ...بل نحن من نبذنا أنفسنا بسبب حرصنا على عدم الانخراط في مجتمعهم، فلم ننسجم معهم، ولم نتعامل كمواطنين مثلهم حاصلين على الجنسية.

ثم سألهم سؤالًا مفاجئًا ليبرهن على قوله: من منكم عندما يدخل أي مؤسسة ويجد فيها خَللًا، أو مُخالفة يتطوع بكتابة شكوى توضح ما حدث، ويضعها في صندوق الشكاوي، أو يُسلمها رسميًّا للإدارة؟

وكانت المفاجأة أن لم يرفع أحد يده إلا فرد أو اثنان!

فقال لهم: تلك هي المشكلة، أنتم تتعاملون «كنزلاء في فندق»!

بينما اليهود مثلًا يتعاملون كمواطنين مثلهم، فأصبحوا منهم.

السؤال المطروح هنا:

هل نحن نعيش في بلادنا «نزلاء في فندق»؟

مع انتشار الفاسد، والسارق، والغشاش، والمؤذي، والخائن، وإخوانهم... ما هو موقفك الشخصي وقد أصبحوا لا يستترون ولا يستحون؟

- هل تبتسم في وجوههم؟
- هل تضرب لهم تعظيم سلام؟
- هل تعامل الشريف مثل الخائن؟

لا أفترض أنك تغامر بالتصدي لهم فَتُطحن تحت أقدامهم، لكن هل تغامر بتجاهلهم أو العبوس في وجههم؟

- هل تغامر وتحتقرهم في قلبك أو تنكر - في سِرك- عليهم شرهم؟
- هل تتطهر فتُخرج إعجابك بهم من قلبك؟

نحن نحتاج خطوات يسيرة من المغامرة حتى يُشجع بعضنا بعضا.

وكلما تساندت تلك الخطوات كلما اقتربنا من النقطة الحرجة للتغيير.

فمن يتطوع برفع حجر كبير قد يتلف جسده تحت ثِقل الحجر، لكن حين يتكاتف الناس لرفع الحجر سيكون خفيفًا وبسيطًا في أيديهم.

٩) «بين المستحيل والممكن»

كانت أمي تطلق على الباذنجان لقب «تُفاح الغَلابة».

في طفولتي لم تكن الدنيا مُنفتحة مثلما هي اليوم، فقد كان التفاح يُسمى بـ«الأمريكاني»، ولا يتواجد في الأسواق، ثم كَثرت الأمثلة الشبيهة بهذا المثل... مثل أن الفلافل المصرية هي «كباب» وطني!

لم يجعل الله تعالى الخير والفائدة فقط في كل ما هو غالي الثمن، بل جعل له نظائر كثيرة يَقدر عليها الفقير، وفي عالم المعضلات والحُلول؛ نحن نعاني من النظرة التي تنجذب فكريًّا وشعوريًّا للمستحيل وتقع في أسره.

نتلهى ونتعامى عن المُمكن والمُتاح، ولا ترى أعيننا وأفكارنا سوى المستحيل والذي ليس بأيدينا، وكلمة السر في هذه المعضلة هي: «العَقْلية».

نحن نحتاج مرونة في العَقلية وهي التي تُبدع مُرونة في الحياة.

سوف أضرب أمثلة من الحياة ولها أشباه كثيرة: في السجون، نتمنى ألّا تكون السجون حاضنة لتدريب وتخريج عُتاة المجرمين، ونتمنى ألّا تكون حاضنة للأمراض المجتمعية الخطيرة، وهذا أقرب إلى المستحيل حاليًا وفي نفس الوقت ليس بأيدينا.

حيث يسجن الكل مع الكل ويتعلم الكل من الكل، فالسجون تجمع بين المجرم الساذج والمجرم العريق في إجرامه، ويكون الأول تلميذًا للثاني، فتتطور العقلية والنفسية الإجرامية وينحدر معها الفساد السلوكي والأخلاقي، ولكي نمنع أو نحد من هذا الفساد نحتاج كثيرًا من الوقت والمال، ولهذا يجب البحث عن وسائل ملطفة للأثر وعازلة.

والممكن والذي بأيدينا ولن يكلفنا أي مجهود أو مال أن تُعطَى حوافز للسجناء ويكون الإنفاق من أيام السجن، مثل أن من يقرأ كتابًا أو يحفظ القرآن أو الإنجيل، ثم يُختبر فيه من متخصص، يُكافأ بأن يُطرح من أيام حبسه، وكذلك من يحصل على مَهارة حِرفية أو علمية، فالمهارة، أو الحرفة، أو العلم يَصبون جميعًا في صالح المجتمع، ويسلحون الفرد بأدوات تساعده عند الخروج للحياة الحرة مرة ثانية، والأيام التي تُطرح من سجنه تُهون عليه وتعطيه أمل، وفي نفس الوقت تُفرغ السُجون من نُزلائها وتُخفف الضغط عليها.

فكرة بسيطة بساطة شراء الباذنجان والفلافل، وليست بدعة، فالعالم المتحضر يطبقها ببراعة وإنسانية، والفائدة عظيمة.

هناك فكرة أخرى قد تؤجل أو تمنع التورط في حياة السجون، وهي أن يكون لدى القاضي صلاحيات تطبيق أحكام مدنية، كأن يعمل الجاني في مصنع بلا مقابل، أو يخدم في مؤسسات مدنية، أو يخضع لعقاب مضاد للجنحة التي ارتكبها، فإن كان الكِبر سببها نال عقابًا يخفض من كبريائه مثل كنس الشوارع وجمع القمامة، وإن كان الجُرم

دافعه القسوة فيخضع للأعمال التي تبث الرحمة مثل الخدمة في المستشفيات والعمل في المزارع التي تربي النفوس الحيوانية والطيور، أو أن يقوم بالقراءة لفاقدي البصر أو خدمة العجائز في دور الرعاية.

في مجال التعليم لدينا أزمة كبيرة، ولكن المفاجأة أن هناك حلولًا بسيطة جدًّا، تستطيع أن تتغلب بقوة على هذه الأزمة، وقد تم تطبيقها في أحد البلاد الأوروبية، وملخص الفكرة افتراض أن المعلمين جميعًا بمستوًى متقارب جدًّا في فهم المادة التي يشرحونها، ولكن القدرة على توصيل المعلومة وشرحها هي موهبة وقدرة خاصة لا تتوفر سوى لعدد قليل من الموهوبين، ولهذا يتوقف تقبل الطالب للمادة واستيعابه لها على حَظه في «موهبة المعلم».

هناك أمثلة كثيرة لذلك عبر التاريخ، يوجد علماء متخصصون في شرح نظرية «أينشتين» تفوقوا بمراحل على «أينشتين» نفسه في شرح نظريته.

عندما كنا أطفالًا كنا نقرأ كُتبًا روسية بعنوان «تبسيط العلوم»، وكانت من أمتع الكتب، يقوم أكثر العلماء موهبة بشرح العلوم مهما كانت معقدة، فيقومون بتبسيطها وضرب أمثلة تقريبية مع الصور الدقيقة والملونة، بحيث يفهمها الطفل، مثل تركيب السيارة، استخدام البخار كقوة محركة، والطائرة، والصاروخ، والكواكب، وصناعة النسيج، واستخراج البترول... إلخ».

وبهذا نتفق على أهمية وندرة الموهوبين في توصيل المعلومة.

لهذا قامت إحدى الدول الأوروبية بالاستعانة بأشهر وأمهر المعلمين في شرح كل مادة دراسية، وتم تسجيل الشرح بأكفأ وأحدث أدوات

التقنيـة الحديثة، وباسـتخدام أرقى الفنون في العرض على الشاشـة، بحيث يكاد الشرح يقترب من الكمال بالنسـبة للطالب، وبهذا يتوفر للطالـب أفضل فيديـو يحتوي على أقـصى قدرة للـشرح والعرض، وتتاح الفيديوهات مجانا على «الإنترنت» للجميع.

وفي المدارس، يقوم المدرس بعرض الفيديو على الطلاب، ويسـتمع معهم للفيديو، وبعد العرض تكون وظيفة المعلم هي تلقي الأسـئلة ومعالجـة مـا صعب فهمـه على الطلبـة وتدريبهم عـلى كل ما يتعلق بالدرس، فيعود الطلبة للمنازل ويسـتطيعون مراجعة نفس الفيديو مرات ومرات.

السؤال هو:

هـذه الفكـرة البسـيطة جـدًّا في تكلفتهـا والتـي تحتـوي عـلى نتائج تشـبه المعجـزة وتُصلـح التعليـم سريعًـا، والتـي في إمكانـات أي دولة أو حتى مؤسسـة صغيرة، ولن تكلف مالًا، أليست جديرة بالتدبر فيها؟

الأفـكار الذهبيـة والتـي بسـعر الباذنجـان كثـيرة جـدًّا ومعروفـة في كل العـالم، كالأسر المنتجـة، والزراعة على الأسـطح، وأحواض الأسماك... إلخ.

كم من أفكار سهلة بأيدينا ولا تحتاج سوى نِية طيبة وقَرارا بالتنفيذ!

وفي نفس الوقت نتخلص من تَقمص حالة توهم الحيرة التي نحياها وتجعلنـا مصممين على اخـتراع العجلة من جديد ومع ذلك نفشـل فيها مرات ومرات!

١٠) «القلب المفتوح»

هل أنا سعيد؟ فتشت في ذاكرتي عن المواقف التي ظننت فيها نفسي سعيدًا: التخرج، انتهاء فترة التجنيد، الحصول على وظيفة، الزواج، الإنجاب... محطات كثيرة في حياتي أصبحت خلفي وصرت أبحث عن مذاقها في ذاكرتي -رغم سابق اللهفة الشديدة في انتظار بلوغ تلك الأهداف- إلا أن مجرد الوصول إليها يعقبه شعور قصير بالراحة والرضا، ثم تطوى الصفحة سريعًا ويعقبها سعي لحلم المرحلة التالية.

إن شعور السعادة مثل الأفلام والقصص العربية، يستمر الصراع طوال القصة وتكون النهاية السعيدة في آخر صفحة في القصة ثم تقلب الصفحة فتجد أمامك غلاف الكتاب، ولو امتد عرض القصة التي انتهت بزواج البطلين بعد طول كفاح لتولدت قصص طويلة لها مسارات تتفرع منها نهايات عديدة، فالإنسان يتطلع دومًا للمرحلة التالية وعند حدوثها يصيبه فيروس الاعتياد، ثم يكتشف أن لذتها الصافية نالها عندما كانت حلمًا وجنينًا ينمو في فكره، فلما أصبحت حقيقة واقعة استردت حجمها ولونها الحقيقي وأصبحت شيئًا عاديًّا، وحل محلها حلم آخر أضخم في صورته وأزهي في ألوانه، فلحظات السعادة محطات لا تدوم كثيرًا، والذي يطول هو الرحلة التي تعقب مغادرتك المحطة إلى حلم جديد... ولكني لا يمكن

أن أنسى طعم سعادتي يوم نجوت من عملية «القلب المفتوح»! فتلك لحظة سعادتي السرمدية التي لا تخبو ولا تنطفئ.

تمددت في غرفة العناية بعد عمل كشف تليفزيوني لشرايين قلبي -قسطرة- وضع الطبيب ثقلًا مكان دخول الخرطوم حتى يلتئم الجرح. طلب مني أن أظل هكذا دون حراك حتى الصباح. لم أستطع النوم... كيف أنام بعد الذي صارحني به! أخشى أنني على وشك نوم طويل. أنظر إلى الممرضات من حولي يتنقلن بين الأسرة وكأن بيني وبينهن برزخًا وهميًّا... وكأني أطل عليهم من العالم الذي أخشى أن أرحل إليه، وأحسدهم لنعمة الحياة التي أشعر أنني أتزحزح عنها.

قمت أستعرض حياتي الماضية ففتشت فيها عن أي منحنيات أو نتوءات أستطيع أن أرجو الرحمة والمغفرة بها فوجدتها حياة منبسطة في غالبها، حياة تقودها العادة، والروتين، والبرمجة السلوكية والشعورية... ولكن وجدت قليلًا من المواقف النبيلة - لا أرجو فيها إلا وجه الله- نشرت السكون في نفسي قليلًا، ولولاها لكنت من المفلسين... ولكنها لا تكفي... فلو صدقت مع نفسي وحكمت عليها لما أعطيتها درجة النجاح في الحياة!

أخرجت ورقة وقلمًا وأخذت أنفس عن شعوري بالصدمة. كتبت أستغيث إلى الله أن يرحمني ويعطيني فرصة ثانية للحياة إن كان في علمه أنني سوف أصلح، وإلا فليأخذني في رحمته التي وسعت كل شيء.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ (المؤمنون: 99،100)

تقدمت ممرضة وسألتني، وقد قرأت ما في وجهي من جزع:

- أنت خائف يا أبي؟

أومأت لها برأسي. رجعت بذاكرتي إلى الوراء حين ذهبت لطبيب القلب وأجريت كافة الاختبارات.

الاختبار الأخير كان يتطلب الجري عشر دقائق، أتممته دون توقف ثم قال لي:

- أنت ما شاء الله قمت بكافة الاختبارات والنتيجة سلبية، ولكن يتبقى القسطرة، ربما وجدنا انسدادًا في شريان فرعي وليس تاجي.

خضعت للقسطرة وظللت أتسلى بمشاهدتها على الشاشة وهي تمر في شراييني... أحسست فجأة بألم شديد، وذهبت في غيبوبة، ثم أفقت مرتجفًا وحولي وجوه كثيرة قلقة.

قال الطبيب:

- عندك انسدادات خطيرة في شرايينك، ولا يمكن وضع دعامات بها، لديك خمسة شرايين تكاد تكون مغلقة ومنها التاجية، لابد أن تخضع لعملية جراحية الآن فالتأخير ليس في صالحك.

تذكرت أبي الذي توفي في مكتبه دون مقدمات، وهو في الأربعينيات من عمره...

وقعت على تعهد بأنني أغادر المستشفي بإرادتي متحملًا العاقبة. قمت بعرض النتيجة على أطباء آخرين واتفقت الآراء على حتمية العملية.

قال أحد الأطباء من أقربائي:

- أسرع قبل أن تهاجمك جلطة... ثم تصبح بعدها الرجل البركة...

سألته متعجبًا ما معنى ذلك؟ فغمز لي بعينه، وقال:

- البركة!

ففهمت.

كان نومي في الليالي التالية قبل العملية ما هو إلا كوابيس متكررة تنتهي بالنداء من أعلى مآذن المساجد «توفي إلى رحمة الله فلان».

أحلم بأنني أقفز بين مرتفعين، إما أن أتمكن من العبور أو أسقط في الهوة بينهما.

داعبت زوجتي قائلًا:

- لو كتبت لي الحياة فاحرصي أن تكوني أول من يوقظني ويبشرني بالنجاة، وإن لم تفعلي سوف أقوم بتقبيل الممرضة التي أفتح عيني عليها، وأنت تعرفين سحر زوجك وجاذبيته.

ردت في بديهة سريعة:

- ما تخافش يا راجل يا بركة، «أنا اللي هافوقك».

وضحكنا.

تصرخ ابنتي من ورائي:

- أدركيني يا أمي إن أبي يشاهد العملية في الإنترنت!

فيسرع الجميع ويغلقون الشاشة سريعًا... وأستسلم لهم.

أعطتني الطبيبة ليلة العملية حبوبًا لتهدئتي كي أنام، كنت أشعر باستحالة النوم في تلك الليلة ولكن مرت بسلام.

قبل الدخول إلى غرفة العمليات قام أخي بالتقاط صورة لي وفهمت المقصود... ربما كانت آخر صورة! فاستسلمت وابتسمت للكاميرا. قام الطبيب بتقطيع معظم جسمي بآلات عديدة وأخرج قلبي، وأخضعني لجهاز صناعي للتنفس والدورة الدموية.

خرجت بعد ساعات طويلة بحمد الله وجسدي يكاد يختفي خلف الأنابيب التي تخرج من كل جانب، خاصة من وجهي.

أفزع هذا المشهد زوجتي وصرخت، لكنها لم تبتعد عني طوال غيبوبتي لأيام. انتظرت زوجتي اللحظة التي يخبرها الطبيب فيها أنني على وشك الانتباه.

في لحظة لا أنساها سمعتها من خارج الغرفة تنادي علي، أبشر بالحياة يا زوجي! كان كالحلم، ولكنه كان أحلى صوت وأسعد بشرى، سمعتها ببعض وعي ثم غبت ثانية.

في أول زيارة لي في العناية وبمجرد رؤيتهم... بكيت.

قال لي أخي:

- لماذا تبكي؟ أنت أحسن حالًا! بجوارك من أجرى العملية منذ أسبوع لم يفق.

قلت له:

- أبكي فرحًا أن الله تعالى وهبني فرصة ثانية للحياة.

فرصة ثانية كي أسجلها في كتابي هذا.

١١) «الإنسان داء ودواء»

في روايـة (يا مريـم) للروائي العراقي «سـنان أنطون»، وفي جلسـة بين أصدقـاء العمـر «يوسـف المسـيحي، وسـعدون الشـيعي»، يتحدثـان بانزعاج عن ظاهرة الطائفية التي طغت في العراق حديثًا.

فتذكـرا نكتة متداولة قديمًا للجواهري الشـاعر العراقي: ظهر الجن المنبعـث مـن مصباح عـلاء الدين لثلاثة أصدقاء: سـني، وشـيعي، ومسيحي. طلب من كل واحد أن يطلب أمنية وسيحققها له، طلب الشيعي أن يفني السنة كلهم. ثم طلب السني أن يفني الشيعة كلهم، فقال المسـيحي: حقق أمنية الشباب أولًا ثم اسألني! الذي أعجبني أنه لم يضع أي طائفة في خانة الملائكة؛ فالطائفية وباء عام.

لا يَستثني، إما أن يُبتلى به الكل، أو يُعافَى منه الكل.

لنفـترض بلـدة تمتلـئ بالحـشرات، أو تغـير ماؤهـا، أو هواؤهـا، لو سـألت كل من في البلدة عن حلمه؛ لأجابك: «رحيل الحشرات، أو صفاء الماء، أو نقاء الهواء»

وهكـذا المشـاعر الطائفيـة، هـي منـاخ يظـل النـاس جميعًـا، إما أن يتخلصـوا منـه جميعًا، أو يخوضوا فيـه جميعًا، إما تطهـر الجميع التام مـن تلك الفكرة ليحـل مكانها التعايش، والتسـامح، والمحبة، وإما القعود في الألم بلا أمل.

في دول مثل لبنان، أو العراق، أو سوريا، أو مصر، أو بقية الدول العربية، لو أغمض غالب الناس أعينهم ثم تمنوا أمنية، الذي سوف يقفز إلى ذهن معظمهم أن تخلو بلده من المذاهب، والأديان، والجماعات، والأحزاب الأخرى، وتَصفو لطائفته وحدها، يقول في نفسه:

- آه لو تَخْلو بلادي للسنة!
- آه لو تَخْلو بلادي للشيعةَ!
- آه لو تَخْلو بلادي للمسيحيين!
- آه لو تَخْلو بلادي للأكراد!

هذه هي أحلام الأفراد المتخلفين نفسيًّا، وفكريًّا، ودينيًّا في شعوبنا العربية.

ولكي نرشدهم للحلم الصحيح يجب أن ننتقل للسؤال التالي:

كيف يأتي الانسجام في الشعوب؟

هل يأتي مع التشابه والتطابق أم مع الاختلاف والتنوع؟

الإجابة: يستحيل أن يأتي التشابه والتطابق مع الانسجام، لأنه ليس سُنة الله في الأرض، ولا تصلح الأرض بدون سنة الاختلاف.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود: 118، 119)

وهناك أمثلة كثيرة تؤكد هذه الفكرة:

عام 1947م، انفصلت باكستان عن الهند، لكي تتكون باكستان، التي يعني اسمها أرض الأطهار، وكان الظن أن هذا الانفصال

يجعل البلاد خالصة للمسلمين، وتتحقق الجنة الموعودة، وكان الانفصال داميًا وقُتل من الجانبين ملايين، لكن سرعان ما انفصلت بنجلادش عام 1971م عن باكستان، ولو نظرنا لبنجلادش وباكستان، لوجدنا أنهما لم يتخلصا من الخلاف ولا الاختلاف حتى اليوم، على الرغم أنهما كانا دولة مسلمة خالصة، بل كل دولة غارقة في تناقضاتها وخلافاتها.

تركيا دولة كلها مسلمون سنة، هل هي منسجمة؟ الإجابة أنها ليست منسجمة عرقيًا، فهناك الأكراد، وليست منسجمة فكريًّا، فهناك العلمانيون، والإسلاميون، والقوميون، واتجاهات أخرى.

والأمثلة كثيرة، فظاهرة الانقسام الانتمائي مستمرة استمرار الحياة البشرية، حتى لو تخيلنا دولة ذات طوائف عديدة وديانات، قد خلصت لطائفة أو ديانة واحدة، فسوف تتشكل داخل تلك الطائفة طوائف، وخلافات، واختلافات، وانتماءات جديدة، هذه الانتماءات لا تنتهي ولا تتوقف عن النمو داخل الكيانات التي تظن أنها متطابقة.

والحل هو أن نفعل مثلما فعلت أوروبا، حين نظروا للاختلاف كنعمة لا نقمة.

قام «حيدر حب الله» البروفيسور الشيعي الشهير، بتدريس كورس عن تاريخ الفقه الشيعي، ونظرًا لشهرته الواسعة، حضر عدد كبير جدًّا من طلبته في «قم» الإيرانية، ثم أعلن بعد ذلك أنه سيقوم بتدريس كورس عن تاريخ الفقه السني، ولم يحضر سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، ولما سأل

تلاميذه عن السبب، قال أغلبهم:

- هههههههههههههه، وهل للسنة فقه؟

هذه النظرة المستهينة، والمختزلة، والمتهمة من الشيعي للسني هي تمامًا نفس النظرة من السني للشيعي، وهي نفس النظرة من المسلم للمسيحي، ونفس النظرة من المسيحي للمسلم، الكل يعتقد في الآخر أنه ساذج ووغد.

عقب الحرب العالمية الثانية، عُقد مؤتمر للحلفاء المنتصرين، وكان «روزفلت» رئيس أمريكا هو نجم المؤتمر وسيد الجميع، فلولا دخول أمريكا الحرب لما تمكن الحلفاء من هزيمة «هتلر»، وطالبت كل الدول بتعويضات من الألمان، فالدمار الذي أحدثه «هتلر» تعدى أي خيال، وهنا قال «روزفلت»:

- أمامكم بقرة، إما لحمها أو لبنها، فلا ينفع الاثنان معًا!

وفي هذا المؤتمر قراران شديدا الغرابة: «أن لا طائفية، وأن لا تصارع على الحدود»، لن يتحارب الأوروبيون بعد اليوم من أجل الطائفة أو الأرض، حتى أن ألمانيا بعد الحرب لم تفقد سوى 10 ٪ من مساحتها، وهذه معجزة فألمانيا تسببت في خراب عالمي ليس له مثيل.

ونظرا لإدراكهم أن الطائفية هي السبب في الحروب التي قتلت مئات الملايين عبر تاريخ أوربا، قاموا بنشر جيش هائل من المثقفين، والإعلام، والرياضة، والفنون في كل أوروبا وأمريكا، يعزف الجميع لحنًا واحدًا: التعددية والتسامح الديني.

بعدها حدثت المعجزة، أصبح لدى كل الشعوب الأوروبية والأمريكية أفكارٌ بديهية واحدة عن الإنسان، وحريته، وحقوقه، وبقية القيم الأوروبية الحديثة، ولكن للأسف قام الأوروبيون بتصدير صَديدهم الطائفي إلينا، فقاموا بإشعال كل الثغرات الدينية والطائفية في بلاد العرب، ومن وقتها ونحن الذين نتقاتل ونتعارك ونتدابر من أجل الطائفة، والدين، والحدود.

هل خطر ببال الإنسان أنه من أندر المخلوقات في الكون؟ لا يوجد أي دليل حتى اليوم على أنه يوجد إنسان آخر في الكون سوى في الأرض، ولو حدث فسوف يكون أيضًا نادرًا، بحيث لا يتوفر إلا في بعض الكواكب النادرة.

الإنسان مهما وصلت أعداده بالمليارات، فلن يخرج أبدا عن وصف الندرة، ولا حل سوى أن يتمسك الإنسان بالإنسان، وأن يعلم الجميع أن الأرض خُلقت لكل الناس، وأن بها من الوفرة ما يكفي كل الإنسان الذي يرد ضيفًا على الأرض.

يكفي أن نعلم أن أقرب نتيجة محتملة اليوم هي فناء الأرض ومن عليها بسبب هذا المرض الخطير، فالطفل يلعب بالبمب والسيوف الخشبية، وعندما يكبر يلعب بالأسلحة النارية فيصبح لَعبه خطرًا، وكذلك في طفولة البشرية الأولى كنا نتقاتل بالسيوف، أما اليوم فهناك دول كثيرة تملك قنابل تستطيع إفناء الأرض ومن عليها مئات المرات، والسبب هو الإنسان غير المتسامح، والأناني، والذي نخشى أن يتهور فيهدم المعبد على الجميع.

الإنسان داء ودواء الإنسان.

لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدون الإنسان، تصبح الحياة موحشة، الحياة جميلة، خلقها الله تعالى بكل أسباب السعادة للجميع، منحنا أسباب السعادة بوفرة، السعادة متاحة للجميع قدر ما الهواء متاح للجميع.

لكن!

لا يؤلم الإنسان سوى الإنسان!

لا يكيد بالإنسان إلا الإنسان!

لا يعكر حياة الإنسان إلا الإنسان!

ولا يسعد الإنسان إلا الإنسان!

الإنسان داء الإنسان ودواؤه!

جاءت الأديان لتهذب من الداء.

تقوي مفعول الدواء.

فما كان من الإنسان، إلا أن استعمل الأديان لإقصاء الآخر!

يستأثر بسعادة الدنيا الحاضرة وسعادة الآخرة الموعودة.

فكان عكس المقصود.

فحلت الندرة محل الوفرة.

وكان الشقاء والشقاق والحروب.

لن يسعد الإنسان وحده.

لن يسلم الإنسان وحده.

لن يدخل الجنة وحده.

كما في الحديث القدسي للظالم والمظلوم:

«خذ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ».

١٢) «تصارع القيم وتساندها»

في السبعينيات، كان هناك برنامج إذاعي جماهيري عنوانه «ماذا تفعل لو كنت مكاني؟»، فيه مشهد تمثيلي ينتهي بمعضلة، ونظرا لتشابك الأحداث وحساسيتها، يكون الخيار على حساب خيارات أخرى، حيث يحدث تصارع القيم أو إرضاء طرف على حساب أطراف أخرى، وهذا هو الامتحان الحقيقي لبني آدم في الحياة.

وكلما زاد عدد القيم المتصارعة التي علينا الاختيار بينها وتفضيل واحدة كأولوية، كلما كان الموقف دقيقًا وكلما كان مؤلمًا ومحيرًا.

الدين، والحرية، والأمن، وبر الوالدين، وحق الزوجة والأولاد، والصداقة، والقرابة، والنسب، والوطن... إلخ.

هل كل هذه القيم تظل في جُزرها المنعزلة أم يحدث تشابك، وتبادل أدوار، وترتيب أولويات بينهم؟

في برنامج «مراجعات» مع المفكر الشيعي «أحمد الكاتب» يروي تلك القصة التي لها مغزى فريد:

«في القرن الثامن عشر في شمال غرب إيران، كان المَغول يضطهدون السكان الشيعة، ومن المعروف أن عقيدة الشيعة الإمامية لا تسمح لهم بالثورة أو مقاومة التتار إلا بعد أن يَظهر الإمام الغائب، حتى أن

صلاة الجمعة متوقفة كشعيرة انتظارًا للإمام الذي يؤمهم في الصلاة وفي الحياة، وكان شيخهم «حسن الجوري» يَخرج إلى الصحراء كل يوم جمعة مع الناس، ويقوم معهم بالمناداة على الإمام الغائب، ويشكو إليه ما هُم فيه من ذل، ويستعجله أن يظهر ليكونوا جنوده ضد التتار.

وفي يوم جاء تتري إلى أحد بيوت الشيعة فأخذ ينهب في البيت على مرأى ومسمع من الأسرة دون أن يتعرض له أحد، فلو نَهَب البيت كله ما وجد مقاومة... لكن حدث تطور خطير... لقد نظر التتري للزوجة فأراد أن يأخذها! فتوسل إليه الزوج أن يأخذ ما يريد ويدع زوجته، لكنه أصر على أخذها. وعندما هَم بأخذها، لم يطق الزوج وقام بقتل التتري. كان هذا هو أول عمل مُخالف لعقيدة الشيعة الإمامية، فتضامن معه أهل البلدة، وسُرعان ما سَرَت ثورة في البلاد انتهت بقيام الدولة الشيعية (السربداريون) لأول مرة في التاريخ، واستمرت خمسين عاما.

المدهش في الأمر أن مقدم البرنامج الذي يستضيفه قال بانفعال: «أخيرا تصرف كبشر!».

الشيعي كان مشدودًا بين قيمتين: العقيدة الزائفة التي تُقيده، والفِطرة التي تدفعه للدفاع عن نفسه وعن ذَويه، فلو انتظر الإمام ليحرر زوجته لتهدمت حياته وحياة أسرته، فانطلقت الفطرة واتخذت القرار الصحيح.

في هذه القصة نموذج، حيث كانت العقيدة الزائفة قيدا للإنسان أمام الفطرة.

الدين الذي يقول للإنسان تقبل الذل أو الإهانة دين زائف. الدين الذي يُمكن للظالم ويُحصنه بروايات مقدسة ويَضطهد المظلوم وينزع عنه حقوقه بروايات مقدسة دين زائف.

الدين الذي يتعارض مع الفطرة دين زائف.

«في أحد بلاد الدنيا كان هناك راهبان، أحدهما شيخ والآخر شاب، كانا على ضفة نهر فإذا بفتاة تصرخ وهي تغرق بقرب الضفة الأخرى، تَسمر الشاب في مكانه بينما أسرع الشيخ بلا تردد وسبح إلى الفتاة فوضعها على ظهره وأوصلها إلى بر الأمان واطمأن عليها ثم تركها، في المساء قال الشاب للشيخ: ألا تعرف أننا مُحرم علينا لمس النساء وأنت تحملها على ظهرك! فقال له الشيخ: أنا حملتها على ظهري ثم وضعتها، فلماذا أنت إلى الآن ما زلت تحملها في ذهنك؟

في هذه القصة تصارعت قيمتان في نفس الشاب: إنقاذ فتاة غريقة، أو التنزه عن لمس فتاة أجنبية، ولو كان الصراع بين ثلاث قيم... لازداد الأمر صعوبة أمام العقول الضعيفة، ولحظة التردد إن طالت فسوف تغرق الفتاة، فحسم الشيخ الصراع بين القيمتين سريعًا وأنقذ الفتاة، وبهذا فالمهارة التي لابد أن نكتسبها هي الحسم في الاختيار بين القيم، لأن التردد أو الخطأ قد يضيع الفرص والأرواح فيصبح التعويض أو الجَبر مستحيلًا.

في صحيح البخاري حديث الثلاثة الذين أغلق عليهم باب الكهف، وهو حديث من أروع أحاديث التراث الديني وممتلئ بالقيم والأمثلة.

يحكي أحدهم:

«كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا ولا مالاً- أي لا أقدم في الشرب قبلهما أحدًا فنأى بي طلب الشجر يومًا، فلم أرح عليهما حتى ناما، فجلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدمي -أي يصيحون من الجوع- فاستيقظا فشربا غبوقهما».

هذه القصة أصدقها وأقتدي بها في الحض على بر الوالدين، ولكن لكل قصة ظروفها ولكل إنسان قراره الخاص أمام تصارع القيم.

في القصة اعتياد على أن يقدم الأب والأم في البر، هذا هو عين البر وعين مقاصد الإسلام، لكني لا أستطيع تجاهل أنه في سبيل الحفاظ على قيمة بر الوالدين؛ تسبب في معاناة شديدة للأبناء بلا ضرورة، أبناء يصرخون ويبكون من الجوع واللبن في يد أبيهم ولا يفهمون تصرف أبيهم إلا أنه قسوة.

والبر أمر سهل ولا يتسرب إليه تعقيد أبدًا، والطبيعي، والفطري، والمعقول أن يَسقي أبناءه أولا لأنهم مستيقظون، ولأنهم جائعون، وأن يستبقي نصيب الوالدين ليتناولوه حين يستيقظون.

ما حدث هو بر شكلي بالوالدين النائمين وقسوة غير مبررة على الأولاد.

إطعام الأطفال وبر الوالدين قيمتان حدث صراع بينهما في القصة، تغلبت واحدة على الأخرى، والأولى أن تتساند وتترتب القيمتان فيصل البر لهذا وهذا، يصل في وقته، ومكانه، ومناسبته.

في صلح الحديبية، كان الخيار بين قيمة السلم وقيم أخرى كثيرة، والرسول صلى الله عليه وسلم - وبوحي من السماء- اختار السِلم، واختار تعطيل مؤقت لقيم متينة في الإسلام، ووافق على رد من أسلم من قريش إليهم ليفتنوه في دينه، كما وافق على عدم تسليم قريش لمن يرتد من المسلمين، حتى أن عمر بن الخطاب كان في قمة ثورته ومعاناته، وهذا مُفصل في السيرة النبوية... ثم كانت النتيجة معجزة بكافة المقاييس، وكان الفتح المبين، وكان دخول الناس في دين الله أفواجًا.

لكل إنسان سلم القيم الذي يختاره لنفسه ويقوم بترتيب قيمه فيه بحرية.

بالنسبة لي عندما أختار بين القيم وتتعارض قيم: «الحرية، والدين، والأمن».

أولا أختار الأمن... ثم الحرية... ثم الدين.

وليس معنى هذا أنني أختار الأمن طول الوقت، فحين يندلع وباء أو اضطراب أمني يتم اتخاذ قرارات تقيد الحريات، وهنا تتقدم قيمة الأمن على الحرية، ولكن شرط أن تكون لفترات قصيرة جدًّا تناسب الوضع الطارئ بحيث تحفظ الحياة والحقوق.

وحين يتوفر الأمن أختار حرية الفرد وكرامته، لأن الحرية حين تنتهك أو تقيد يُفسَح المجال للنفاق، والفساد، والظلم، والله تعالى يريدنا مؤمنين وليس منافقين، فلابد من المناخ الحُر ليختار الإنسان ويتصرف بحريته وبلا ضغوط أو ظروف شاذة، وبعد ذلك أختار الدين.

وهـذا ترتيب في سُـلم وليس تفضيل لقيمة عـلى أخرى، فالدين له قيمة لا تنافسـها قيمـة عندنا جميعًـا، ومثل الدين كمثل الإنسـان، يحتـاج الهواء والحرارة المناسـبة للحيـاة، فهواء الدين هو السـلامة والحرية.

القيم تتصـارع وتترتب ويتغير ترتيبها حسـب الظروف والشروط، فعنـد الخـلاف بـين الأم والزوجـة تُراجـع القيم وتترتب بحسـب الأحـداث والمكانة، لا بحسـب المكانة فقط، فلو تم ترتيبها حسـب المكانـة فقـط فسـوف ينتصر الابـن للأم عـلى حسـاب زوجته مهما كانـــت الأحداث وبغض النظر عن الظالم والمظلوم.

وعندمـا تتصـارع القيـم بـين طاعـة الوالديـن وتقريـر مسـتقبل الابـن وخياراتـه؛ أيضـا تُراجـع القيـم وترتب بحسـب الأحداث والـشروط، فـإن طاعـة الوالديـن لهـا مكانتهـا ولكـــن هنـــا تتدخـل عوامـل مثـل ميـول الابـن ومهاراتـه وعوامـل أخـرى، وبعد الترتيب يكون القرار.

سـلم القيم ليـس قوالـب حجرية تصطـف بالترتيـب، ولكنها قيم سائلة متداخلة ومتساندة، وتحتاج حكمة، وفهم، وضمير.

قـال الله تعـالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (المائدة: 33، 34)

في الآيـة الكريمـة جـــاء تفضيـل منظومـة الأمـن المجتمعي على العـدل، فلم يحكـم بالقصاص، بل رضي بالكف قبـل القدرة عليه، والملاحظ أن المفسـد في الأرض قتل جماعات ونهب وارتكب أشياء فظيعة.

كل يوم يمر يتسبب في مزيد من القتل والنهب الجماعي، فكان الحل الإلهـي هو وضعه بين خَيارين، إما العقاب القاسي المؤلم، وإما العفو الفوري بمجرد الكف والتوبة.

الخلاصـة أن مـن يريـد تحقيـق كل القيم دفعـة واحدة سـوف يظل في مكانـه دون أي إنجـاز وسـوف يسـتمر في النزيـف والخسـارة، يجـب أن يكـون لـه عقليـة تفاوضيـة تختـار القيمـة الأولى لتسـود ثـم تتلوهـا مصفوفـة القيـم في ترتيـب، فالقيمة الأولى هـي مدخل للقيمة الثانية وهكذا.

١٣) «بين الفَسيلة وثُقب الأوزون»

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قامَت الساعة وفي يَدِ أحَدِكم فَسيلة فليَغْرِسها».

بعض الأحاديث لها نظير في أديان كثيرة، مثل حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه»، ورد في تراث معظم الأديان بكافة أنواعها معنى وربما لفظ هذا الحديث، حتى إن بعض العلماء يسمونها: «القاعدة الذهبية».

لكن حديث الفسيلة بلفظه ومعناه لم أسمَع أو أقرأ مثلَه، وأراه فريدًا في معناه ومقصده، ولم يقصد النبي صلى الله عليه وسلم عمارة الأرض! فالقيامة سَوف تُهلك الأرضَ بِما فيها، ولكن قَصَدَ عِمَارة النَفس بنية الفعل المستمر للخير.

هناك نُكتة شَهيرة:

«أراد أحد الأزواج أن يَستعرضَ مَدى سُلطته في البيت وانفِراده بالقرارات الخَطيرة،

فقال:

- كي أعيش في وئام ونظام قمت بتقسيم القَرارات بيني وبين زَوجتي. لها القرارات الهامِشية الصَغيرة، ولي القرارات المصيرية الخَطيرة، وهكذا دام عيشنا في سلام ووئام.

سأله المستمع:

- وما هي القرارات الهامشية؟

قال:

- القـــرارات الهامشـية هي أين نَسـكن... اختيار المَدرسـة التي يلتَحق بهـا الأولاد... الأسرة التي نُصادقها.... القروض التي نلتزم بها... إلخ.

فقال له متسائلًا ومندهشًا:

- وماذا تبقى لك؟!

قال:

القـرارات المتعلقـة بحَـل ثُقـب الأوزون... الصراع في سـوريا.... معاهدة مَنع انتشـار أَسـلحة الدَمار الشـامل... تَمدد النُفوذ الصيني في إفريقيا والعالم... إلخ».

تزعجنـي ظاهـرة منتشرة بـين أغلب النـاس وخصوصًا الشـباب، وهـي «الدعـاء بالمـوت سـاجدًا، والأمـل بقـوة في حُسـن الختام»، أيضـا يزعجنـي القـول بـأن «مـا يصيبنـا مـن كـدر ونكـد هـو ثـمار معاصينـا»، وتنـاسي أن هنـاك شـعوبًا كثـيرة غـير مسـلمة وهي أحسن حالا منا! فلماذا لا يُعجل لهم الله العقوبة في الدنيا مثلما يعجل لنا! هي إذًا معادلة نفهمها منقوصة أو معكوسة.

أو ربـما نحـن لا نفهم معنى المَعصيـة ولا نفهم سُـنن الله، ولا نفهم معنى مصطلح «سنن»!

هذه الروح المنتشرة بين الشباب غريبة وفاتكة بهم وبالمجتمع وتعطل المسـتقبل، لا يمكـن إصلاح دنيـا ولا دين بتلك الروح المستسـلمة والمتشائمة.

مـن أكـبر المظاهـر التـي صاحبـت مـا يسـمى «الصحـوة الدينيـة» انتشـار هائل للكتب التي تتحدث عن علامات السـاعة الصغرى، والكبرى، والحسـاب، وأهـوال يوم القيامة، وهي مـن أكثر الكتب التي تُتداول وتُشترى في الدول العربية.

هـي أيضًا مِن أقل الكتب ثمنًا، كان من المنطق أن يَصحب الصحوة الدينيـة دعوات للإعمار وللأمل في الحيـاة، وابتكار أفكار تصب في التطبيـق العمـلي لتغيير المجتمع، لينتج ما تسـعى إليـه الصحوة من استعادة الحضارة الإسلامية.

كيـف حـدث العكـس وتركـزت الصحـوة عـلى المظهـر في الوجه واللباس فقط فنشرت الدعوات لحفظ القرآن وليس الفقه؟

فأصبـح الناس مَصاحـف، ومُتون فقة وعقيدة تمـشي على الأرض، فزادت الكتب الورقية، كتب من البشر.

كان الصحابـة لا يَحفظـون عَـشر آيـات حتـى يفقهوهـا ويُطبقوها ثم ينتقلون لما بعدها، لأنهم فَهموا أن المطلوب أولًا الفقه والتطبيق.

لـو تَطلعنـا في «اليوتيـوب» ورصدنـا حجـم المشـاهدة للخُطـب التـي تتحدث عـن أشراط السـاعة، وتفاصيل القيامـة، والعلامات الصغرى والكبرى، لوجدنا حجم المشاهدة للخطبة الواحدة بمئات الألـوف، بينـما حجـم المشـاهدة للخطـب والمحاضرات التـي تَنشر الوعـي، والفَهـم، والعِلم، والثقافة، يترواح بـين «عشرة ومائة» ولا يزيد، محاضرات في ميكانيكا الكم، أو الفلسفة، أو التاريخ، أو علوم الفضاء، أو الفيزياء، تجذب فقط أقل من عشرة مشاهدين عرب، أمة شبابُها يائس من الغد ومُتجه بكل كيانه للموت وما بعده!

في حـوار كثيـف بينـي وبين صديـق يتميز بالـذكاء والثقافـة الدينية الأصولية سألته:

لماذا إصرارك على التركيز على أشراط الساعة؟

أليـس في خطتك أن يَسـتعيد المسـلمون دَورهم في الدنيـا، ويكونوا وسائل هِداية للناس، ويَنشروا الدينَ الخاتم؟

هـل مـن الإسـلام القبـول بـأن نظـل هكـذا دون إضافـة علميـة، أو ثقافية، أو فكرية، أو قِيَمية يحسبها العالم لنا؟

فما كان منه إلا أن شَرع في اسـتحضار كل الأحاديث والأقوال التي تقـول: إن مـا يَحدث هو من علامات السـاعة وأنها أوشـكت، وأن خلـو الأرض مـن المؤمنين هو من علاماتها، وأن الإسـلام سـيعود غريبًا، فطوبى للغرباء.

فوجدت خياله يخلو من أي سـيناريو آخر! وبهذا فهو يتفق تمامًا مع قول العلمانيين بأن الحضارة الإسلامية انتهت.

واتفـق الإخـوة الأعـداء عـلى نفـض اليـد مـن أي مجهـود لبعـث وإحيـاء الديـن، لأن خلاصـة الفكـرة هـي أن يقبـض كل مسـلم عـلى عقيدتـه منتظـرًا السـاعة، فأخـذت أضرب كفًّـا بكـف من الذهول!

أعـود إلى تلـك النكتة التـي يوهم فيها الزوج نفسـه بأن لـه قرار في مشكلة ثقب الأوزون ويخلع مسئوليته من الأسرة التي هي مسئولية مشتركة بينه وبين زوجته؛ فيتركها كلها لزوجته.

فثقب الأوزون هو أشراط الساعة وأهوال القيامة، أي ما ليس بأيدينا.

ثم أعود للحديث عن الفَسيلة التي أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بغرسها لأرصد أننا - ولسبب مريب وخبيث- تم حشو رَوعنا وخَيالنا بشعور اليأس من الدنيا، وأن لا جدوى من الأعمال الصغيرة التي بين أيدينا، فبين أيدينا مهام صغيرة وعديدة ولكنها مثمرة.

لماذا لا يقوم كل إنسان بتفقد الفسائل التي عليه واجب زراعتها ويخفف قليلًا من جُرعة الاهتمام المحبط بالأحداث التي ليس له يد فيها؟

إن فَهْمنا لاقتراب الساعة هو فَهم فيه استعجال.

نحن ما زلنا في بداية قصة بني آدم، وما ختام الرسالة بكتاب مقروء وليس معجزة عينية إلا علامة على انتهاء فترة الطفولة البشرية.

وما بين الطفولة والهِرَم مسافة زمنية طويلة، مسافة ربما تتجاوز أربعة أو خمسة أضعاف ما نتصوره وربما أكثر.

فلماذا نستعجل النهاية؟

هناك مَلمح لم ننتبه إليه جيدًا

عندما قال الله تعالى للملائكة: (إني أعلم ما لا تعلمون).

لو كانت النهاية أوشكت ولو كانت هذه فقط هي قصة الإنسان على الأرض هل تتوافق تلك النهاية مع (إني أعلم مالا تعلمون)؟

لـو كان القـادم القريـب هـو القيامـة لـكان مـا قالتـه الملائكـة هـو الـذي حدث، لأن الإنسـان عبر التاريخ كان يفسـد في الأرض ويسفك الدماء.

فلابـد أن في علـم الله أن الآتي سـوف يتحقـق فيـه مـا يعلمـه الله فينا ولم تكن تعلمه الملائكة.

اليـوم نشـهد البشريـة وقـد شرعـت في تحقيـق نُضـج ملمـوس في الأرض، وسـوف يـأتي يـوم يُـرِي اللهُ الملائكـةَ مـا يَعلمـه فينـا، من تبني الإصلاح، والصلاح، والتنزه عن سفك الدماء.

ولهـذا لـو كنا مسـلمين حقًّا لهببنـا لتلك المهمـة، وكنا نحـن ادوات تحقيق علم الله فينا.

ومن منطلق هذا المفهوم يُصبح من ينتظر الساعة - ويَظن أنه قابض عـلى دينـه- لم يفهـم دينـه، ولم يفهم مـراد الله ووعـد الله ومعنى أننا خلفاء الله.

لمـاذا لم ينتـشر حديـث الفسـيلة وأمثاله، بـدلًا مـن أحاديث أشراط الساعة ويوم القيامة؟

هذا سؤال أنهي به حديثي لنفكر ونتدبر.

١٤) «العزاء على الجبّانة»

حكى لي صديقي أنه كان في قريته عندما يتوفى الفقير، يجتمع على أهله الحزن والكرب، ربما بكى أحدهم بحرقة وبلا انقطاع، يربت القوم على كتفه مواسين، يتطوع أحدهم بتنبيههم: «دعوه يبكي كي يُنفث ما به فيستريح، فالفقيد يَستحق البكاء عليه الدهر كله».

يقول صديقي: وكان غالب بكاء أهل الميت ممتزجًا بسبب أقوى من مصيبة الموت، فالموت قضاء الله ولا راد لقضائه، ولكن هناك سبب آخر يعرفه الجميع ويمنعهم كبرياؤهم من البوح به جهرًا، فالمتوفى قد استراح... أما أهله فمن أين لهم بتكلفة العزاء؟

كان من أعراف القرية المقدسة، التنافس والتفاخر في مراسم العزاء، يتفاخرون بأن فلانا كان مَشهده عظيمًا، أحيا أهلُه ذِكره بِعزاء مَهيب ومُقرئ شهير، أما مَن عَجز عن المُنافسة؛ يناله العار أبد الدهر! وسوف يُعَيَّر بتلك الوصمة هو وأهله، كم من فقير باع كل ما يملك كي يفلت من تلك الفضيحة!

ثم جاء الفرج من عند الله، توفي عزيز لأحد العائلات الفاحشة الثراء، الأسرة التي تمتلك السرايا، فما كان من ولي أمر المتوفى إلا أن قال: العزاء يقتصر على الجَبانة!

وكـم كانـت تلـك الحادثـة بَركـة عـلى كل القريـة، نتـج عـن ذلك أنـه عندما يتوفى أحد الفقراء ولا يقـدر أهلُه على عَمل سرادق عزاء أو التضحيـة بذبيحـة يقـول ما قال الباشـا، ثم يُتبعه بقـول: «هو أنا أحسن من الباشا؟»

في تلـك القريـة ظـل فقراؤهـا - وهـم أغلـب النـاس- قابضـون عـلى تقاليـد العـزاء كالقابـض على الجمـر، الـكل يتـألم ولا يتكلم، الكل تجاوز فاجعته في العزيز الذي فقده، ووجد نَفسه قسرا مُستَغْرِقا في التحسر على خَراب بيته.

انتظرت القرية سـنينًا طويلة، وهي ساكنة دون حراك أن يهبط عليها الفرج من حيث لا تحتسب، فلا أمل إلا في تدخل السماء.

وهـل هذه إلا دعـوة العاجز؟ وهل كلهم عاجزون؟ مسـحورون؟ مقيدون؟

وهل كل المشاكل يتم حلها من الذين لديهم سلطة ووجاهة؟

لمـاذا لم يخطر بالبـال أن يجتمع أكثر القوم بالقرية وعيًا وشـجاعة، ما بين شـاب وشـيخ، حيث تمتزج القوة والحكمة، ويعترفوا بشـجاعة أنهم يتألمون ويعانون، ويقرروا إلغاء هذه العادة المتخلفة؟

تغيـير القناعـات والعـادات المجتمعيـة، لا يسـتطيع أن يتصـدر لهـا الفـرد وحده، هذه عمليـة فدائية وربما انتحارية، سـوف يُدهس مـن الجميـع، حتـى ممن يؤيـده بفـؤاده في دعوتـه، تغيـير القناعات والتقاليـد، لا يقـدر عليـه إلا مجموعـة مـن المبادريـن بالإضافـة إلى أن التغيـير لا يمكـن أن يـأتي دفعـة واحـدة حتـى لـو كان حقًّا،

فمثلًا الإسلام عندما أراد تحريم الخمر بدأ بأن الخمر له مضار أكثر من منافعه، ثم بأن (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى)، ثم انتهى بالتحريم الصريح، هكذا دومًا تغيير أية عادة يُشترط فيه التدريج والإقناع معًا، ومن يقومون بهذا الدور هم دومًا الذين يستحقون لقب النُخبة.

في فيلم مطب صناعي بطولة «أحمد حلمي»، خريج الجامعة العاطل، يعمل مؤقتًا في وضع رنات موسيقية على الموبايل ويبيعها للشباب، وفي إحدى الصلوات في المسجد يُهاجم الخطيب من يضع موسيقى رنات على الموبايل، يستشيره الشاب بعد الصلاة ويشرح حالته المادية المُلحة، يتحجج بأنه يَندر من يَطلب نغمة دعاء، غالب الناس يطلبون «الواوا»!

يعطيه الخطيب فتوى باردة بالتحريم ثم يتبعه بقول: «أنت طلبت النصيحة وأنا نصحتك!».

يعطيه نصًّا، وحُكمًا، لا يتفاعل ولا ينفعل بالواقع مهما كان.

عندما يصل أغلب الشباب للبلوغ مبكرًا ويظل دون زواج حتى يتجاوز الثلاثين وربما أكثر، هل تكون الفتوى هي نفسها! ويقال لهم صوموا بينما المحظوظون الذين تمكنوا من الزواج فهنيئًا لهم، وهي أرزاق؟

أم أن الحكم الذي يستند لنصوص لابد من أن يُزاوج بين تلك النصوص والواقع، فلا يَهدم النص، ولكن يَستند لنصوص أخرى ومباحات، ويستعين بإبداعات تلطف من المأساة، وتخفف من قسوة الواقع؟

مثل أن تنبعث دعوات دينية حقيقية وقوية لتيسير الزواج وأن ننفض عن مراسم الزواج ما هو مباهاة وتسابق فيها، والتي تتسبب في الإحباط للشباب الغير قادر!

وأن تنخفض مطالبنا بحيث لا تنتشر بين الفتيات عدوى الرفاهية وأخواتها، كالتفاخر بأن ابنة العم جاءها شبكة كيلو ذهب... إلخ!

الشباب في بلادنا يُدفعون مبكرًا لنفق التعليم والتجنيد، ثم يبتلون بالعجز عن العمل والزواج، ليت المجتمع تركهم ليتعلموا تعليمًا أوليًّا، ثم ينخرطوا في الحياة الحِرفية مبكرًا، فيتعرضوا لرزق الله ويتذوقوا الحياة، ولكن غالبهم يسلك الطريق الطويل الذي يخرج منه الشباب، ثم يسقط مباشرة في بئر الحرمان والعجز.

ألم يعلم هذا الواعظ أن الولد أو البنت قد أكلتهما العزوبة! مجتمع شديد القسوة، يضغط من جميع الاتجاهات، ورجل الدين محدود الفكر والعلم.

في المصنع، عندما يحدث خلل في ماكينة للقماش، وتخرج قماشًا به ثقوب قليلة، هل يقوم صاحب المصنع بتعيين عمال ليتولوا معالجة تلك الثقوب؟ أم يقوم بإيقاف الماكينة وتوجيه فني يعالج الخلل في الماكينة حتى يخرج القماش بدون ثقوب؟

الحلول الجذرية هي التي تطهر حياة الإنسان من الشقاء والكدر.

غالب الشقاء الذي يكدر الناس، لا يتسلل إلى حياتهم رغمًا عنهم، بل يتسلل بإرادتهم وبتغاضيهم عنه، حتى يتخلل بعض ماكينات

المجتمع ويحدث الاضطراب، ولهذا لابد ممن يبادر بالدعوة للتفتيش في الماكينات المجتمعية وإصلاحها.

الواعـظ في بلادنا مخير مثلما كان صاحب المصنـع مخيرًا في اتخاذ قرار معالجة الثقوب أو إصلاح الماكينة.

وللأسـف أغلبهم يتخـذ القرار الأول، فيكتفـي بالدعوة للتبرعات والخدمات التي تخفف قليلًا من متاعب الناس، ومتاعب الناس هي الثقوب المجتمعية، ويستحيل سد تلك الثغرة بهذه الطريقة، وليست كل الثغرات تُسد بقرار من الدولة، بل أغلبها بيد الناس، وللأسف يندر بين الناس من يشـعر بأنه مسـئول ويدرك تلك البديهة، ويكثر من يوهم نفسه بأن كل المشاكل بيد الدولة.

١٥) «الأيدلوجيا»

في فيلم (شعبان الفارس) بطولة «أحمد آدم»، يدخل مسابقة تمثيلية يُظهر فيها أقصى شجاعة وتهور، تصاحبه الكاميرا كظله أينما سار، يأمل في نهاية المغامرة أن ينال الجائزة الكبرى.

يركب عن طريق الخطأ سيارة تتجه إلى ارتكاب جريمة، يصرخ فيه الناس أن لا توجد كاميرا، وأن الرصاص المنطلق تجاهه حقيقي، والرصاص الذي يُطلقه أيضًا حقيقي، وليس «فشنكًا» كما يَظن، ولكنه يتجاهل الجميع، فكلهم أوغاد مدسوسون ويريدون إفشاله وخروجه من السباق.

ولأنه مندمج في غفلته، يتلاعب به الأشرار ويستغلون سذاجته، فكان مغامرًا بنفسه وبالناس في كل خطوة يخطوها، وهو لا يدري!

هذا الساذج العنيد أخذ معلومة وسار عليها دون مراجعة، وأخسر الناس من لا يراجعون أنفسهم دومًا.

في الفيلم الشهير «The Truman Show» (عرض ترومان) بطولة «جيم كاري»، شخص يعيش حياة عادية، له طموحات، وأحلام، وأهداف، يكتشف أنه نجم أشهر «برامج تلفزيون الواقع»، التي تبث على مدار أربع وعشرين ساعة إلى كل الناس في الأرض، بدأ العرض التليفزيوني المباشر، منذ ولادة «ترومان»، فكل ما في حياته مصطنع ومدروس،

النـــاس والأحـــداث وكل شيء، اكتشـف أن مدينتـه وعالمـه مـا هـو إلا اسـتوديو كبـير، الكامـيرات مسـلطة عليـه في كل مـكان!! نعـم كل مـكان!! حياتـه مخترقـة بالكامـل، في السريـر، في الحـمام، في خارج البيت الخ.

المشـتركون في القنـاة التليفزيونيـة يتابعونـه كظلـه منـذ ولادتـه، تجني القناة التليفزيونية من ورائه مالًا طائلًا.

هـذا الشـاب كان يعتقد أنه يعيش حياته هو، وفكره هو، ومشـاعره هو، لم يكن يخطر بباله أنه يُلعب به بتلك القسـوة، يعيش في عالم غير حقيقي... عالم مدروس فيه ردود الأفعال.

يقـوم المخرج كل وقت بإضافة توابـل تثير الجمهور، يُلقي إليه طُعمًا سواء كان مالا، أم فتاة، أم أي حدث مصطنع، يعيش البطل التجربة المقتحمة حياته ويعاني أو يتمتع، والملايين يَتَسَلُون بقصته ويراهنون عليه.

يتوهـم أنـه يعيـش الواقـع، يعيـش حياتـه وليـس حيـاة في دمـاغ مخرج البرنامج.

في النهاية يكتشف الخدعة ويمتلك من الشجاعة والحكمة أن يهرب من الاستوديو الكبير ليبدأ حياته الخاصة الحقيقية.

كم كانت صدمته حين أدرك الحيلة!

كـم يكـون شـعوره حـين يـدرك الحيلـة في سـن الشـباب! في سـن الرجولة! في سن الشيخوخة!

لابـد أن الألم والحسرة يتضاعفا كلما نظر وراءه ثـم أمامه، يقيس ما ضاع وما بقي من العمر، فمن أفاق في سن الشباب غير من أفاق في شيخوخته، لكن على أي حال، اليقظة مكسب كبير.

فربـما لديـه مـن الوقـت لينبـه الآخريـن كـي يغـادروا مبكـرًا بقية الاستوديوهات الأخرى، التي سجنوا فيها وهم لا يشعرون.

هـذه الفكـرة تجسـيدًا لفكـرة فلسـفية جديـرة بالاهتـمام والبحـث وخلاصتهـا، أننـا ربما نعيش حلـمًا وليس واقعًا، وربـما نحن نعيش في عقـل أكثر وعيًا منا بمراحل كبـيرة، هو الذي يفكر ويقرر ونحن استجابة لأفكاره ورغباته.

هنـاك بعض المتسـابقين الذين يتناولون المنشـطات التي تعينهم على الجـري لمسـافات طويلة، أخـذ أحدهم منشـطًا، وظل يجـري حتى سـبق الجميـع. واختفوا عن نظره، وكلما شـعر بالتعب تناول جرعة مـن العقار المنشـط. ثم يجري، والواقع أن السـباق قد تغير مسـاره، وتـاه عن المتسـابقين وخـرج من السـباق وهو لا يـدري، ويظن أنه في المقدمـة، ويظـل وحيـدًا في هـذه الدائرة التـي لا تنتهـي، يتناول المنشـط ثم يجري، ثم يتعب، فيتناول المنشـط ثم يجري، حتى أصبح لا يـدري، هل يتناول المنشـط ليجـري؟ أم يجري ليتناول المنشـط؟ وتاه عن الطريق، وتاه عن السباق، وتاه عن الهدف.

في المثال الأول شـخص يتوهم نفسـه في اسـتوديو بينما يلعب بالنار كما يقول المثل.

وفي المثال الثاني شخص في استوديو وهو لا يعلم.

وفي المثال الثالث شخص عنيد أدمن العدو بلا هدف وأدمن معه المنشطات.

فأصبح أسير لتلك الثنائية.

ما هو شعور الإنسان النبيل الحامل لفكرة دينية، أو وطنية، أو قِيمية؟

يقضي عمره يتصدر المخاطر معتقدًا أنه يتطوع بها بدلًا عن قومه.

ما يريح ضميره أنه يرى نفسه على الحق، وأنه إن سقط في أية مرحلة من حياته سوف تكون له العاقبة عند الله خير الجزاء، ويكون مثلًا لقومه في الثبات على الحق، يدعو أصحاب الهمم من الشباب أن ينضموا معه في دعوته النبيلة، ويحلم أن يتضاعف الجهد وينتشر ما يظنه الوعي.

لكنه في مسيرته لا يجني سِوى الفشل! يُبتلى هو ومن معه، بل ويُبتلى قومه معه وبسببه! وفي كل مرحلة فشل يستدعى إيمانه بربه وبقضيته النبيلة، يرجع كل ما يحدث إلى أن هكذا طريق أصحاب الدعوات النبيلة، وأن الابتلاء هو امتحان الصبر والرضا كثمن للنصر الموعود.

تناله وتنال أصحابه وتنال قومه بلوى وراء بلوى، لا يفكر أن للبلاوي أسبابًا أخرى غير أنها سنة السائرين على طريق الحق، وأن البلوى ربما في أفكاره، أو في الأيدلوجية التي يحملها، أو في أنه يعتقد أنه لابد من البلوى، أو أنه أصبح بلوى تمشي على الأرض وهو لا يدرى.

مـاذا حين تتضاعف المصيبة ويكتشـف أنه كان يسـير طـوال حياته بجهـاز تتبع! جهاز يُرشـد عن خطواته، ويُسـجل حواراته وخُطَطه وأفكاره!

يُلهم من يراقبه ويَسـمعه بكل ما يُبطل سعيه، فيستثمر خصومُه كل خطواتـه، وأفعالـه، وأقواله، ضـده وضد قومـه ولصالح الأشرار، يكتشـف أنـه أصبح عميلًا مزدوجًـا، رغما عنه بغفلتـه وحُمقه، حين يكتشـف تلـك المصيبة عليـه أولا أن يتوقف، أن يسـترجع الشريط السـينمائي للـماضي كامـلًا، فهـذا الاكتشـاف يوجب عليـه أن ينظر بفهـم مختلف، وربما بفهم معكوس، يـدرك أن الذي كان يدافع عنه بقـوة مـن أفكار ومواقف هـو تلقين ودفع مخطط مـن خصم مجهول أو معلوم، لكي يسير في مسار يضره ويصب في مصلحة الخصم.

وأنـه بكل حماس يندفع بتهـور إلى البلوى التي سـتناله وتنال قومه، فكل أفكاره وخطواته كما يقولون مذاعة على الهواء.

ولا يحلم أي خصم حلمًا أكبر من أن يكون خصمه بتلك السذاجة.

يتوقف، ثم يراجع، ثم ماذا؟

يغادر الاسـتوديو الذي انزلق بداخله رغمًا عنا، ثم ينزع جهاز التتبع والتجسس الذي زرع في جسده.

ما هو جهاز التتبع الذي يُزرع فينا؟

وهـذا الجهـاز، وهـذا الاسـتوديو، وتلـك الكاميرات تتلخـص في كلمة واحدة:

«الأيدلوجيا».

١٦) «الإنسان السلعة!»

لا يملك الإنسان سوى حياة واحدة على الأرض، ومع ذلك أكثر وأرخص السلع التي يتم إنفاقها وتداولها هي الإنسان، أصبح الإنسان سلعة، سواء كان طوعًا أم قهرًا، بدافع نبيل أو وضيع.

يُباع الإنسان من أجل: المال... السلطة... المصلحة... الشعارات... الشهوة!

صور الإنسان السلعة لا تعد ولا تحصى، ولهذا وجب التنبيه كي نتوقف عن الوقوع في الفخ.

هناك قضية شهيرة في أمريكا تسمى «فورد بينتو»، حدثت في سبعينيات القرن العشرين، عندما أقبل غالب الأمريكيين على شراء سيارة «فورد بينتو»، وكان بالسيارة عيب كارثي ومميت، كان خزان الوقود في الخلف بدون حماية، فإذا صُدمت من الخلف تنفجر السيارة ويُقتل من بداخلها، ومن ينجو من الموت يصاب بعاهة جسدية أو يُبتلى بجروح خطيرة.

تكررت الحوادث وزاد عدد الضحايا، وتم رفع قضايا عديدة على شركة فورد، بعد تحقيق طويل ودقيق، تبين أن شركة «فورد» كانت تعلم بهذا العيب الخطير! وأنها أجرت دراسة سرية للتكاليف والخسائر، انتهت إلى هذا التقرير:

«تحصين خزان الوقود كحماية لمنع الانفجار يتكلف 11 دولارًا للسيارة، عدد السيارات التي ستحصن على نفقة فورد 12.5

مليون سيارة، التكلفة الإجمالية على فورد 137 مليون دولار. ثم في المقابل تم حساب ما غرمته الشركة بسبب هذا العيب، فكان: 200 ألف دولار تعويض لكل حالة وفاة، وعددهم «***» حالة، و67 ألف دولار تعويض لكل حالة إصابة، وعددهم «****» حالة، و50 ألف دولار تكلفة إصلاح عدد 2000 سيارة. فكان المجموع هو 49.5 مليون دولار!

بهذا تمثل الغرامة تقريبا «ثلث» تكاليف الإصلاح، فكان الخيار والقرار هو عدم تحصين السيارات، واختيار تحمل التكلفة الأقل ماليًّا!

وهي تعريض العملاء للهلاك والمعاناة، فتجاهلت حياة الإنسان وصحته ومدى فداحة ما يتعرض له ولم تنظر للإنسان كقيمة مطلقة، بل نظرت إليه كسلعة مقابل ثمنها بالدولار.

في الستينيات من القرن الماضي بأمريكا، في إحدى كليات البنات الشهيرة، كانت إحدى السيدات العجائز المحافظات مسئولة في الكلية، وكانت تعترض على أن يبيت الأولاد مع البنات في السكن الجامعي، كان دافعها للرفض دينيًّا وأخلاقيًّا، فكان النقاش في مجلس إدارة الكلية هو كيف لأمريكا الحديثة العلمانية أن يعوقها سبب ديني في هذا العصر الحديث؟

تسبب هذا التناقض في حرج كبير فأرادوا أن يخرجوا منه بتبرير مادي، نظروا إلى أن هذا الشاب الذي يبيت يُكلف الجامعة تكاليف زائدة مثل: اضطراره للاستحمام فيستهلك مزيدًا من الماء الساخن، وتضطر الكلية لتغيير الملاءات وهذا أيضا مُكلف، وبهذه الطريقة قاموا بحساب التكاليف، ثم أصدروا قانونًا شديد الغرابة أنه

لا يجوز أن يبيت الشاب أكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع كضيف! وأن عليه الالتزام بدفع خمسين سنتًا عن كل ليلة، هكذا خرجوا من المأزق بتحويل القيمة الأخلاقية إلى قيمة مادية.

في صباح اليوم التالي كتبت الصحف الشهيرة في عنوانها الرئيسي:

بنات كلية (***) بخمسين سنتا في الليلة!!

أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، في الفترة من عام (1861 إلى 1865) قامت الحكومة بفرض التجنيد الإلزامي، لكن أعطت رخصة لمن يرفض الاشتراك في الحرب الأهلية أن يوظف شخصًا يقاتل بدلًا عنه، ويعطيه الأجر حسب سعر السوق، انتشر وقتها إعلانات في الصحف تعرض كمثال: 500 دولار أو 1000 دولار لمن يحارب بدلًا عن فلان، يقال أن وقتها «أندرو كارنيكي» - وكان من أكبر أثرياء أمريكا- تم تجنيده، فاستأجر أمريكيًّا بثمن أقل كثيرًا مما يُنفقه على سجائره الفاخرة!

في السبعينيات حدث انفتاح استيرادي في مصر، ولم يكن بضوابط ولا بهدفية، انفتاح وفقط، فأحدث هزة في قِيم المجتمع المصري، ووقتها انتشرت ظواهر الإنسان السلعة، نشأ في طبقة رجال الأعمال الجُدد من يستورد أطعمة فاسدة ومنتهية الصلاحية ليأكلها المصريون، ويتفاخر بأنه يساهم في الأمن الغذائي باستيراد أطعمة وبيعها رخيصة الثمن، وانتشر الغش في مواد البناء، فكانت ظاهرة سقوط المباني الجديدة على أصحابها، وهذه أمثلة عالجتها السينما المصرية وقتها بأمانة، والظواهر كثيرة لتحويل الإنسان إلى سلعة مهدرة.

عَبر التاريخ يستشهد الإنسان من أجل مسميات مثل:

1- الديـن: كلهـم يموت في سـبيل الدين، ومـا أكثـر الأديان على الأرض! وكل الأديـان صحيحة في نظر معتنقيها، وكلهم يُمني نفسه بالخلود في الجِنان، فأغلب المتقاتلين يَطلبون سلعة واحدة ويظنون أنها لديهم وحدهم، بينما الآخرون فإلى الجحيم.

2- «الوطـن، والدولـة، والمَلـك»: عندمـا يموت النـاس من أجل كل هـؤلاء، مـن يضمن أن الذين سيعيشـون بعدهـم، والذين ضحـوا بأرواحهم مـن أجلهم، سـينعمون بالإصلاح أو تحقق الشـعار النبيل الذي ماتوا في سـبيله؟ الذي يحدث غالبًا هو أن من يجني الثمار هم فئة تُسـيطر وتَغنم، ثم تستمر معاناة الإنسان من جديد.

3- «الشـعارات النبيلة»: يمـوت تحت رايتهـا الآلاف وربما الملايين، ولكـن عبر التاريخ، يقفز الأوغـاد ليهنأوا بالنصر الذي ثمنه حياة النبلاء، ثم يقود هؤلاء الأوغاد مرحلة جديدة من شقاء شعوبهم.

حـان الوقـت لأن يتريـث الإنسـان في قـراره، ولا يندفـع إلى أن يكـون فـداء لشـعارات يرتديهـا النفعيـون كقنـاع، أو يكـون فـداء لما لا يضمن خلوصه لمن ضحى من أجلهم.

الإنسـان قيمـة يجـب ألا تُنتهك، كان الاسـتعباد هو أقسـى وسـيلة لانتهـاك الإنسـان عـبر الزمـان، وأخـيرًا تـم إلغـاء الـرق، ونضج الإنسـان وأدرك قيمته، ولكن سـيظل دائمًا معرضًـا لرياح الانتهاك والاسـتغلال بصور تتحول وتتلون دومًا، وهذه مجرد أمثلة لوسائل التلون التي تتحايل دومًا لوضع الإنسان في ميزان الثمن لا القيمة.

وهـذه هي سـاقية الحياة وأيضًا هي القصة المكـررة ودرس التاريخ، فليحذر الإنسان أن يكون سلعة تباع، أو تنتهك، أو تهدر.

١٧) «ولا يتبقى لي سوى الصابونة!»

عندما أنوي الاستحمام أنظر إلى الرف، أراه يحوي عُبوات مختلفة الأنواع والأحجام والألوان، شكلها جميل وجذاب، متراصة في نظام، مرسوم عليها كتابات بعضها بالعربية وأغلبها بالإنجليزية.

أدور ببصري بينها، وكأني مغترب في بلاد العجم، أحول بصري عنها سريعًا، فأنا بالفعل لا أنظر أبدًا إليها، لا أعترف بها ولا أمل فى أن يحدث تعارف بيننا، وأظل أبحث بعيني عن ضالتي، حتى تقع على الصابونة، فهي ما تبقى من معارفي، وهي وسيلتي الوحيدة التي تَعني الاستحمام.

ليس الحمام وحده الذي ازدحم بالغرباء وضَيق على صابونتي، ولكن هذه الغربة تتكرر في نواحٍ عديدة، فأنا لسوء الحظ مثل الماكينة التي تتواجد في المطار للكشف عن المواد الممنوعة، لا تتعرف إلا على الكود المدخل في برنامجها، أنا مرهف الحساسية لأي فكرة أو معلومة، وغليظ الحساسية لبقية الأشياء، وللأسف الأشياء الأخرى كثيرة جدًّا، وهي غالب أشياء الحياة.

عندما أجلس في مكان، لا أنتبه لأي معالم وتفاصيل أخرى، وعندما أتحدث مع أشخاص لا أنتبه لملابسهم أو وجوههم مهما تكرر اللقاء،

أقرب الناس لي لا يصدقون أنني بالفعل لم أنتبه.

فأنا أتذكر كلمة أو معلومة قرأتها منذ عشرات السنين، ولا أتذكر إلى الآن لون الأرضية، أو دهان الحائط، أو الصور المُعلقة عليه في شقتي.

ولهذا فإن الكلمة التي دومًا تقال لي: «حاول في اللقاء أو الزيارة أن لا تتقمص دور الأبله»، فالكل يَنصحني، والكل يُشفق علي لسذاجتي، والكل أيضًا يكاد يقسم أن فهمي للحياة طفولي، وأنني أستحق الرثاء لأنني أعيش في دنيا المِثال.

ولكني أراهم من نظارتي يهدرون غالب عمرهم، وجهدهم، ومشاعرهم، فيما لا يثمر إلا قليلًا.

كلام أغلبه فارغ ومشاعر أغلبها ضالة وهموم أغلبها طائشة، وعواطف أغلبها أنانية وبخيلة.

أراهم حملوا في حقائبهم الغالي والرخيص، وحقيبتنا يجب أن لا تُسكن إلا بالجواهر.

ولهذا فلا أحمل في حقيبتي سوى صابونتي.

١٨) « إذا الإيمان ضاع!»

تنتشر نغمة ماكرة وخبيثة بين الناس أن الأديان هي عِلة القسوة، والشِقاق، والقتل، والتحامل، وأنها سبب كل شر، وأن كوكب الأرض سينعم بالسلام حين تُطرح الأديان من الفكر الإنساني، أو على الأقل تهبط الأديان لمنزلة الهواية الشخصية والدنيوية، مثل: الموسيقى، والرياضة، والفنون.

بذلك يرتدي الذئب فراء الحَمل الوديع ويرفع راية الدفاع عنه،

فأضحك ساخرًا ومتعجبًا! وهل في الإلحاد سلام ورحمة؟ هذا وهم وسراب، هذه فكرة مُهلكة.

لو استعرضنا مآسي التاريخ، حين كان الدين هو الفكرة المسيطرة على الناس، لوجدنا أن ضحايا الحروب الدينية يتضاءل ويتواضع أمام ضحايا الأفكار الإلحادية، حتى محاكم التفتيش والحروب الصليبية وغيرها من سلاسل القتل باسم الدين، قام الدين بتهذيبها والتقليل من اتساعها وامتداد شررها، فلم تصبح نارا هشيما تدمر كل شيء.

من لا يدرك تلك الحقيقة، فليتذكر ضحايا الشيوعية وهم عشرات الملايين، والتفصيل متاح لمن يريد المزيد في صفحات التاريخ، أو ليتذكر ضحايا النازية وهم غالب كوكب الأرض، حين عَبد

الناس الذات وادعت أجناس التميز عن بقية الأجناس، وحين طغت النظريات الفلسفية الشاذة.

عندما التقى هتلر بموسيليني، أهداه كتابا لنيتشه، كان «نيتشة» هو المثل الأعلى لهتلر، وموسيليني، وستالين، وبقية الطغاة.

جاء نيتشة بحلم الرجل السوبرمان، وتقبل فكرة أن الإنسان المتفوق قد يقبل إيذاء الناس من أجل أهداف عظيمة، ثم تطورت نظريته على يد أتباعه ليقرروا أنه: «إن وجدت رجلًا معاقًا يمر بجانب حفرة عميقة، الأفضل أن تدفعه ليقع بداخلها ويقل عدد الضعفاء في العالم»

فما كان من ألمانيا النازية إلا أن أعدمت عشرات الآلاف من المُعاقين والمُسنين، والادعاء أن هذا الإجراء قد تسبب في تحسن الاقتصاد الألماني.

هذه ليست نكتة ولكنها تاريخ مسجل.

ثم تولدت النظريات العلمية الشاذة التي تؤله العلم، حتى أنهم في معسكرات الأسرى لدى اليابان، كانوا يُجرون أبحاثًا علمية عسكرية عليهم، فكانوا يَحرقون أطراف الإنسان وهو واعي، ليدرسوا تأثير الألم على أنزيمات الكبد أو عمل الطحال!

وتشتهر النكتة التي لم تبعد عن الواقع أن أحدهم قام بدراسة علمية لمعرفة هل يتمدد الطفل بالحرارة وينكمش بالبرودة! وعندما قيل له هذه ليست من الرحمة، رد قائلًا: «إن اعتراضك ليس علميًّا، فكلمة الرحمة لا علاقة لها بالعلم».

تاريخ حياد الإنسـان عن الدين ولو بدرجة قليلة أنتج قصصًا هائلة وبشعة من القسـوة الشاملة، وفي زمن يسير جدًّا، فلا ضابط وكابح بدون الدين.

هذه الملاحظة شـديدة الأهمية كي لا ينجرف النـاس أمام الدعاوي العربيـة العلمانية والإلحادية، التي تبدوا لنـا كدعوة ملائكة العصر، بينـما خلفهـا نُفوس مظلمة سـوف تجرنا للهلاك، سـواء عن حسـن أو سوء نية.

الإيـمان... أي إيمان... يَنسـب الكون والمخلوقـات إلى إله مُهيمن، يستطيع محاسبة الناس بعد الموت، ويتدخل لتأديب الناس في الدنيا، ويكبـح الطغيان في نفـوس النـاس، ويجعلهم أكثر إنسـانية ورحمة، وحين تنفلت القسوة من المتدين سيكون لها حدود.

فانتبهوا ولا تنجرفوا إلى ما لا تطيقون ضرره وأذاه!

١٩) «اللون الشفاف»

لو سقط شعاع الشمس على لوح زجاجي مقلم «مكون من قطع طولية» إلى ألوان مختلفة، يخترق الشعاع الزجاج ويخرج منه ملونًا، ثم يسقط على كل واحد فينا بحسب موقعة.

لو تخيلنا أحدهم جالسًا في ظل الشعاع الأزرق، سوف يرى كل شيء مَصْبوغًا باللون الأزرق.

بينما جيرانه مغمورون في ألوان مختلفة.

سوف تكون آرائه وأفكاره مُشبعة باللون المَسجون فيه.

ولهذا هو ليس حرًّا، فالحر هو الذي يرى الشعاع قبل أن يخترق الزجاج ويخرج ملونًا.

سيظل سجين اللون الساقط عليه، ولن يتحرر إلا بالتزحزح عنه. حين ينتقل إلى بقعة أخرى بلون مختلف حيث يقعد جاره.

سوف تجتمع له خبرة لونين من الألوان الساقطة عبر الزجاج المقلم. مثل أن يتحرك من اللون الأزرق إلى الأصفر فيرى الدنيا كلها صفراء.

وهنا تظل المشكلة مُلونة.

فقط سيقوم بتغير وجهة نظره بتغيير مكانه، ولكن سيظل واهمًا أنها الحقيقة، بهذه الخطوة المفردة الناقصة هناك مكسب

مُهـم كمقدمـة أنـه أقتنع أن هنـاك وجهتـي نظر تتوقف عـلى اللون أو الموقع.

الحل هو أن يجعل كل الألوان تتفاعل وتنضم لبعضها، وكلما أضاف لونًا، زادت الشفافية حتى ينتج في النهاية النور الصافي الأصلي، الذي هو أصل كل الألوان، ويدرك أنه كان واقعًا تحت ألوان الطيف.

ليـس شرطًـا أن تـترك موقعـك، وليس شرطًـا أن تـترك عقيدتك، تنقلـك لن يريحك لأنك سـتترك أحـد الألوان، لابـد أن تتجرد من اللـون الذي أنت واقف فيـه، في النهاية كل الألـوان لها أصل، أنت تحلـم بالألـوان وأنت مغمـض العين، وهـذا دليل عـلى أن داخلك مَلكة رؤية الألوان ببصيرتك.

الـكل متوهـم الصحة؛ لأنه يتخيل ويفهم مـن خلال مرور الأفكار على خطي الزمان والمكان اللذين يمثلان الزجاج المقلم، فنحن نرى من داخل الزمان والمكان، فلو خرجنا خارجهما من الناحية الأخرى للشباك نستطيع أن نشاهد بقية الألوان من الخارج قبل سقوطها على الزجاج الملون، فنرى اللون الشـفاف الصـافي، وإلى أن تأتي اللحظة التي يكون بصرنا حديد، ونرى من خارج خطي الزمان والمكان، أو نرى من الجانب الآخر للزجاج الملون علينا أن ننتقل بسـبر الأفكار كلها بإخلاص صاف وتجرد لتقبل الحقائق بلا ألوان.

٢٠) «بشره بالنار!»

توفي أحد أصدقائي في الخارج، وكان لابد من إنهاء إجراءات نقل جثمانه إلى مصر، ذهبت مع صديق للمشاركة في غُسْله في مكان تجهيز الموتى، ثم حفظهم في الثلاجات، فجاءت عربة تحمل جسد صديقنا ومعه جثتين، غَمَرنا الخشوع والجلال لذلك الموقف العظيم، حَملنا جثة صديقي فترحمت عليه، ثم حَملنا الجثة الثانية فترحمت على صاحبها بينما نحمله إلى الثلاجة مباشرة، فنهرني صديقي قائلا:

- هذا هندوسي لا تترحم عليه!

فقلت له:

- لِمَ؟

قال:

- الحديث يقول: «بشره بالنار!».

دار بيننا نقاش لم يتوقف لشهور، ولم يقنع أحدنا الآخر.

كيف تكون السُّنَّة أن أبشر من يموت على غير ديني بالنار؟ كيف أجعل القسوة والتشفي دينًا أو سُنَّة أطبقها؟

حتى لو كان الحديث به درجة من الصحة مهما علت.

أيـن التأويل؟ أين عرضه على آيات الرحمـة التي في كل آيات القرآن الكريم؟

أيـن التأويـل مـن الآيـة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾؟ (الأنبياء: 107).

أيـن الحديـث مـن النبي صـلي الله عليه وسـلم عندما وقـف لجنازة اليهودي، حين قال: «أوليست نفسا!».

أيـن نحـن مـن إصراره على الاسـتغفار والصـلاة عـلى رأس زعيم المنافقـين - عبـد الله بـن أبي سـلول- الـذي كان يكيـد ويـؤذي النبـي والمسـلمين بـلا توقـف وبـلا حـدود ومـع ذلـك أصر النبي عـلى تكفينـه في عباءتـه؟! أليسـت الرحمـة هـي التـي دفعتـه لذلك السـلوك؟ أوليـس فعلـه هـذا يـرضي الله؟ فالرسـول لا يفعـل إلا ما يرضي الله.

هـل ورد أن النبي صلى الله عليه وسـلم بشر أحـدًا من أقربائه الذين لم يؤمنوا بالنار؟

ابـن القيـم رحمـه الله في كتابـه «شـفاء العليـل» ذكـر أن الحديـث: «جعـل الله الرحمـة مائـة جـزء فأمسـك عنده تسـعة وتسـعين جزءًا وأنـزل في الأرض جـزءًا واحـدًا، فمـن ذلـك الجزء يتراحـم الخلق حتـى ترفـع الفـرس حافرهـا عـن ولدهـا خشـية أن تصيبـه». قال إن التسـعة وتسـعين جـزءًا في الآخرة لخلقه جميعًـا مؤمن وكافر وليس فقط للمسلمين!

لو أني على غير دين الإسلام ورأيت مسلمًا يتعامل بتلك القسوة في مشهد جليل مثل هذا، بلا نقاش لن أدخل هذا الدين!

نحن نعتقد أننا على الحق وهذا الشعور يجب أن يصحبه شعور مرافق وهو الشفقة، والرفق، والعذر للآخر.

الآخر الذي فشلنا في إيصال عقيدتنا وإيماننا إليه، وليس الآخر الذي فشل في أن يصل إلى الحقيقة التي ورثناها بسبب الجغرافيا والتاريخ.

للأسف نحن قد تسرب إلينا نفسية شعب الله المختار، مع أن شروط خير أمة أخرجت للناس معروفة ولكننا نتجاهلها، وهي «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ونحن نحتاج إعادة تعريف المعروف والمنكر، وأن نوسع من مفهوم الطاعات والمعاصي؛ لأن فهمنا لهما شديد الضيق.

لو عاشوا معنا لكانوا مثلنا، ولو عشنا معهم لكنا مثلهم.

فرفقًا بهم وبنا.

٢١) «افتح يا سمسم!»

يحكي «أحمد زويل» رحمه الله في أول التحاقه بالجامعة في الخارج، كان لكل طالب خزانة يضع فيها أشياءه، فجلب لخزانته قفلًا، وأغلقها ثم نظر حوله فوجد أن كافة الخزائن بلا أقفال!

وعندها أدرك الفرق بينه وبينهم.

والفرق بين مجتمعه ومجتمعهم.

وتأملت في القصة فقفز إلى ذهني صور مشابهة...

غرف مغلقة، ضمائر مغلقة، أحلام مغلقة، قلوب مغلقة، مشاعر مغلقة، نيات مغلقة.

وتذكرت سلسلة مقالاتي «دوائر بلا أسنان»، لأنني تخيلتها دوائر مغلقة!

نحن شعوب كانت منفتحة زمن الاحتلال، ثم حدث تغير عنيف جعلها تنكمش للداخل، تنكمش، وتتراجع، وتتوارى، وتختبئ، ثم تغلق عليها مخبأها.

لنتخيل صفين متقابلين من عشرات السجون الانفرادية، كل سجين وحده في غرفته الضيقة، ما هو شعوره وقد اصطدم بصره وجسده بالحوائط الملاصقة له والجدران المغلقة بالأقفال الغليظة؟،

ثم لنتخيل لو فتحت الأبواب المغلقة لجميع غرف السجناء، ألا يشعر الجميع بالاتساع؟ على الرغم أن المساحة الكلية لم تتغير.

ألا يشعر الإنسان بالسعة حين يفتح شقتين على بعضهما؟

فأنت حين تفتح غرفة نفسك - أو «سجنك»- سوف تأخذ من سعة أخيك وتعطيه من سعتك.

نحن نحتاج جميعًا أن نفتح بيننا غرف قلوبنا فنرى ونحس الاتساع.

نحتاج أن نفتح ونكشف أحلامنا فنرى الإمكان والمشترك فنُطبق أحلامنا على الأرض.

نحن نحتاج أن نفتح ضمائرنا فتُنقى وتُصفى تحت شمس الشفافية والوضوح.

نحن نحتاج أن نفتح مشاعرنا فيزول الكبت والخوف والهاجس.

الانفتاح هو الحل، فالانفتاح يعني الشفافية.

ولنتخلص من كل الأقفال، فالانغلاق ينمي فينا الخبث.

٢٢) «ذيل، ورأس، وحبل»

في مَشْـهد كوميدي - ولا يَصْلح إلا كذلك- تسير بعض الحيوانات في دائـرة وكل ذيـل مربوط إلى رأس الحيوان الذي خلفه، يتعثر أحد الحيوانـات فيرتطـم بالـذي وراءه ويجـذب الـذي أمامـه، فيتعارك الجميع ويسود الهرج.

كل حيـوان يَظـن أن مُشـكلته في الـذي أمامـه والــذي خَلْفـه وأنهما يُعيقانه عن الانطلاق للأمام ويَجْذبانه للخلف.

كل الحيوانات مُنشغلة ببعضها ولا تَنْتبه للحبل ولا لمن رَبَطها جميعًا بحبـال في دائرة. هذا في عالم الحيوان معقول ومفهوم، ومفهوم أيضا عجز الحيوان عن فهم اللعبة.

أما نحن بنو آدم؛ فكل اتجاه فكري وطائفي عندنا يرى أن الآخر هو العائق أمامه وهو سَبب تَخلف الركب.

المعـارك حاميـة بـين الجميـع منـذ عُقـود طويلـة ولم يَلتفـت أحـد إلى أن هنـاك عامِـلًا مشـتركًا غائبًـا، ولابـد أن ينالـوه أولًا، ثم بعدها يُفكرون في اتجاهات الانطلاق ووسائلها ومَراحلها...

العامل المشترك والذي كان غيابه سببًا لما هم فيه هو «الحرية»! الحرية الدينية، والفكرية، والنفسية، والاجتماعية، والأسرية، والتعليمية...

لابد من الحرية للجميع، فالحرية المفقودة مثل هذا الحبل الذي يربط كل رأس بذيل.

تستمع لمحاضرات وأفكار العلمانيين، والليبراليين، والماركسيين، تجدهم لا يتكلمون إلا عن المسلمين الرجعيين الذين هم سبب كل بَلية وتَخلف ومصدر كل شر.

يدور كل كلام الإسلاميين عن الاتجاهات الفكرية التي تتآمر على الإسلام ويرفضونها كلها.

هل سمعت أيًّا من كل تلك الاتجاهات المتشاحنة يتكلم عن الحرية كأولوية وأن غيابها هو المرض؟

حتى الليبراليين أنفسهم - الذين دينهم الحرية- تاه وضاع هذا المصطلح من قاموسهم، بل ويتحولون إلى ديكتاتوريين حين يبرز نجم الإسلاميين.

الكل يخشى إن دخل سباق الحرية أن يكون نتاج الحرية أن يسبقه الطرف الآخر، ولهذا يجذبه من القيد المشترك بينهما وهو قيد معنوي من الكره، والضغينة، والتحامل فيبقيه معه في المؤخرة، والكل مربوط والكل يتلاوم والكل يتناطح.

لو بحث الجميع عن المشتركات لأدركوا الضرورة الحتمية للحرية، فهي التي تقطع الحبل المقيد للجميع، وهي المناخ الذي لا يستطيع أي منهم أن ينطلق إلا من خلاله.

لـو قطـع الحبل لاسـتطاعت الحيوانات الخـروج عن مسـار الدائرة ولأدركوا أن الدنيا فسيحة وتسع الجميع.

ولـو نال الناس الحرية لأدركوا اتسـاع الدنيا وأنها تسـع كل الناس، وكل الأفـكار، وكل الأديان، وأن السـعادة متاحـة للجميع كما الماء والهواء.

الحرية تُخرجهـم من وهم الضيق والنُدرة وامتـلاك الحقيقة المطلقة، وتخرجهم من مناخ حظيرة الطائفية إلى مناخ:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هود: 118)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (الحجرات: 13)

الكل يتكلم عن المربوط في ذيله ورأسـه، ولا أحد يتكلم عن الحبل ولا من ربطنا في الحبل.

ونحن بنو آدم منحنا الله أرقى العقول والأرواح، فما عذرنا؟

٢٣) «الظاهرة العدوية»

ذهب أحد المَرضى إلى الطبيب يُريد علاجًا للأرق الذي يَجعل النَوم مطلبًا عسيرًا، فالأرق يَجْعلَه يُعاني في لَيله ولا يُغادره الإرهاق في نهاره.

دفع ثَمن الكشف وانتظر دَوْره طويلًا، وفي الدقائق القليلة التي تتاح له أمام الطبيب، قام الطبيب بفتح حوار حول «الأهلي والزمالك»، وبعد أن فَرَغ الحَديث الكروي؛ لقنه الطبيب تعليمات بشأن التغلب على الأرق ووصف له العلاج، واستمع المريض بقليل من الانتباه، فقد استغرق حوار اللعب غالب طاقته وانتباهه فرجع إلى بيته ليستفرد به الأرق.

هذه حكاية مُذْهلة ولا يُمكن تَصديقها، ولكن تتحول إلى حكاية أسطورية سخيفة حين تحكي أن المريض كَرر نفس السيناريو مع الطبيب مئات المرات!

في أحد الأفلام كان هناك مشهد أشبه بالكاريكاتير بين «سمير غانم» و «أحمد عدوية» بسبب غيرة الأخير على زوجته، يكاد «عدوية» أن يفتك «بسمير غانم»، ثم فجأة يقوم «سمير» بترديد أغنية لعدوية «يا عم يا صاحب الجمال، ارحمني أنا ليلي طال» وكأنها كلمة السر، فيَنْهمك عَدوية في الغناء باندماج، ويَهرب سمير وصديقُه بينما عدوية يغني.

كثير من تلك الأساطير التي تشبه نكات «الكاريكاتير» نُمارسها في حياتنا بتلقائية ولا نَنتبه لها، بل قد نُمارسها جماعات وبغفلة جماعية.

عندما يَكتشف موظف أن زميله تَخطاه في مِيزة أو علاوة، يَهْرع بحماس وغضب ليسأل عن السبب؟ لو حدثه المدير عن «الأهلى والزمالك» هل سيتلهى أم سَيَعدها إهانة؟

هل سيسمح للمدير أن يَحجب عنه معلومة سبب التخطي؟ وهل سيظل ساكنًا بلا محاولة للِّحاق بزميله؟

لأن الموضوع شخصي ولأننا عبيد الأنا، وأسْرى المال، سيكون الجواب: «من المستحيل أن يقع هذا الموظف في فخ «الأهلي والزمالك» في هذا الموقف».

تمتلئ وسائل التواصل الاجتماعي وتمتلئ حياتنا بحوارات عن أهم أمراضنا، للأسف أغلبنا يتحدث عن الأعراض والظواهر، ولا يطيق التحدث عن سبب الداء أو عن الدواء، لذيذ جدًّا اختزال الأمراض في حِكايات وشِكايات عن أحداث وظواهر:

«مؤامرات الخارج، الحكومات، تربص الغرب بالإسلام، الخيانات، العمالة، طبيعة الشعب»، عناوين كثيرة هي كالحديث عن «الأهلي والزمالك» تَستغرق طاقتنا وعمرنا.

استمر الجميع في الحديث عن تلك العناوين بروح الحديث عن «الأهلي والزمالك».

أما الحديث عن الأسباب التي أدت إلى كل ما نحن فيه وقدرتنا على المساهمة في العلاج، يتم تجاهلها كلها ويَصمت الجميع بمجرد البدء

في الحديث عنها، أو تلقائيًّا ينحني الموضوع ليرجع لهواية الشكوى وجلد الذات.

عندما نتطرق لفكرة تتعلق بسبب «القابلية للاستعمار» كما وصفها «علي شريعتي» - أو «القابلية للاستحمار» كما وصفها «مالك بن نبي»- تنتابنا الحالة العدوية فنختزل كل الموضوع في عنوان يطرح الحمل واللوم عنا.

فالحديث عن تلك العناوين العدوية سهل... ولذيذ... وطويل... و«ببلاش» ويعشقه الجمهور.

الحديث عن الأفكار التي سببت هذه الأمراض، والأفكار التي يجب أن نعتنقها، والمواقف التي يجب أن نتخذها... كل هذا ثقيل ولا يلقى حماس منا.

نحن ندمن الآه ويا ليل يا عين!

ولا نريد أن ننزع بأيدينا الشوك الذي في جسدنا وحلقنا.

٢٤) «أجسامنا سبقت أرواحنا»

هنـاك أسـطورة تقـول إن أحـد الأغنيـاء طلب مـن بَعـض الفقراء البدائيـين حَمْل أمتعته والسَـيْر معـه، وكان الأجر مضاعفًا، فسـاروا معـه من بلد إلى بلد بـلا توقف، وبعد زمن توقفوا ورفضوا السـير، ولما سألهم عن السبب قالوا:

- لقد سرنا وسرنا حتى سَبقت أجسادنا أرواحنا، يجب أن نَتوقف لتلحق أرواحُنا بأجسادِنا.

هذه وإن كانت أسـطورة فقد صارت وصفًا لحالنا جميعًا، وما منا إلا وله فيها نصيب.

لقـد أصـاب مُعظمنـا لوثـة وعَـدوى التسـابق، فكلنا يجـري لمجرد أن الجميـع يجـري، تندفـع الأجسـاد في هلـع فتنخلـع أجسـامُنا عن أرواحِنا.

أتذكـر أحـد الأصدقـاء سـافر إلى اليمـن في الثمانينيـات للتدريس، وفي إحـدى المناسـبات تواجـد في مـكان يمتلـئ بالشـيعة، وكانت مناسبة شيعية يقوم فيها الجميع بالبكاء والنحيب.

يقول:

- رغـم إننـي غـير مُقتنع بهـذا الفعـل، إلا إننـي وجدتنـي أبكي وبحرقـة معهم، فقد أصابتني عدواهم ولم أسـتطع أن أتوقف، فعَمل الجُمهور يعدي.

بسبب ما يحدث لنا من لوثة وعدوى التسابق، يجب أن يبادر بعضنا بالتوقف لحظة للتأمل، وإعطاء فرصة للحاق الروح بالجسد.

المدرس أو أستاذ الجامعة الذي يعطي الدروس ليل نهار ويُغالي في أجرته، فليتوقف ليراجع دافعه لإعطاء الدروس، لقد بدأ كوسيلة لتعويض العَجْز في الراتب، ليسأل نفسه كيف انتهى! هل ما زال يسد العجز، أم يلهث لشِراء العَقارات وكنز الأموال؟! ليتريث قليلا وليضبط أفعاله، نحن لا نطالبه بالكف بل مُراجعة أهدافه ووضع قاع لمطامعه، بما يوفر قدرًا من الرحمة بالطلاب وقدرًا من السمو لمهنته الإنسانية الجليلة.

الطبيب، والمهندس، والمقاول، والمحاسب، ورجل الأعمال، والمحامي... الإنسان.

على الكل أن ينتبه، فالروح لا تَنْفصل عن الجسد إلا مرة واحدة، عند انتهاء امتحان الإنسان في الدنيا، أي عند الموت، وإن كان كذلك، ماذا نسمي من سَبق جَسدُه روحَه، أليس هذا نوع من سَلب الحياة أو النقص فيها؟

ليضع الجميع نَصب عينيه التناسق التام في مسيرة الحياة بين الروح والجسد فيَصير إنسانًا كاملَ الإنسانية، لا يَغْفل عن إنسانيته، ولا يَخْضع لسير القطيع، فالقطيع يَجْزع وينفلت عَدْوًا في كل اتجاه بداعي الغريزة، وما فَضَّلنا الله تعالى إلا بِنداء العقل والفِطرة السليمة.

٢٥) «يوم تاهت القيمة القرآنية وحل محلها الفرد»

التاريخ ممتلئ بالأكاذيب، ولكن رغم ذلك لا يخلو من مواعظ ودروس.

ومن لم يتأمل الحوادث الأولى في التاريخ، حين بدأ الخط المستقيم في الانحراف يظل يسطر أخطاء التاريخ كما هي، ولكن بأثمان أفدح.

كلما قمت بالغوص في أعماق التاريخ وقعت على نقط انحناء خطيرة، سار في أثرها عوام الأمة ونُخبتها.

ليس هذا عيبًا فيهم، فكيف نشاهد انحناء الخط المستقيم ونحن نسير خلاله؟ لابد من الارتفاع عنه أو الخروج منه لنقارنه بخط مستقيم آخر مقابل له، وهذا هو الذي يجعلنا نلتمس العذر لمن سبقنا، ونحمد الله على ما آتانا اليوم من نعمة العلم، العلم اليوم متاح للجميع مثل الهواء والماء.

عندما حدث الانحراف الحاد في مسيرة الإسلام، حين فرض الأمويون النظام الوراثي وكسروا مسار الشورى، ما هو رد فعل الأمة؟

لم ينتبه الناس إلى أن الذي تم كسره هو «قيمة قرآنية»، ولكن نظروا إلى أنه حق سُلِبَ من آل البيت!

والقرآن لم يضع قداسة لأحد مهما كان نسبه، ولكن تاريخ الإنسان في تعامله مع الأديان يميل إلى الانحراف إلى تقديس أشخاص كواسطة بين الإنسان والسماء، ومن هنا سالت الدماء بلا ثمن، وما زالت تُهدر وتَسيل بلا ثمنٍ وبلا هدفيةٍ.

يقول المثل المغالط منطقيًّا:

الشعراء يكذبون... فلان شاعر... إذًا فلان كذاب!

الفأر يسير على الحائط... الفأر أبيض... إذًا الحائط أبيض!

لنقارن هذه المغالطة بالسيناريو الذي حدث بين الصحابة «رضي الله عنهم أجمعين»:

- «معاوية» حارب الخليفة «علي» بذريعة طلب القصاص من قتلة عثمان.
- «الحسن بن علي» يضحي بشرعية الحكم مقابل الحفاظ على وحدة الدولة ويتنازل "لمعاوية"، على شرط أن الأمر بعده شورى بين المسلمين.
- «معاوية» يورث ابنه الحكم بالقوة ويحولها من شورى إلى مَلكية قيصرية كسروية.
- وبهذا تم الاعتداء على الشورى وسُلبت الخلافة من «علي» و«الحسن» الذين هم من آل البيت.
- «معاوية» اعتدى على حق آل البيت في الحكم.
- ضاعت الشورى من القلوب حل محلها عقيدة «أن آل البيت هم من يحكموا».

• لم يعد للشورى ذكر، وما زلنا نطارد الهدف الخطأ.

حين فقد المسلمون الشورى كان لابد أن يتحدوا مقاومين وراءها كقيمة إسلامية انتهكت، ولو فعلوا لعادت الشورى والخلافة الراشدة مبكرًا ولاستقام الانحناء في مسار المسلمين.

ولكنهم وللأسف ابتدعوا نظرية آل البيت، وحقهم في وراثة الحكم.

(وأصبح السؤال من يَحكم الناس وليس كيف يُحكم الناس؟)

وسالت الدماء غزيرة حتى جاء العباسيون، باسم الرضا من آل محمد، ولم يتغير شيء. وتكرس الحكم القيصري الكسروي، واختفى ذكر الشورى، وما زالت الدائرة تدور.

مثل الجراحين الذين اختلفوا على طريقة إجراء عملية الولادة، والمرأة مخدرة بين أيديهم، فسب أحدهم الآخر، فتلاحما في عراك وأصبحت القضية هي السباب وكرامة الجَرَّاح، وما زال المريض مخدرًا وينتظر مصيره، وما زالت الشورى جنينية لم تولد وتهبط إلى أرض واقع المسلمين.

ولهذا فوداعًا للمناداة بالأشخاص.

ليتنا نادينا بالقيمة القرآنية وقت أن انتهكت!

ولم نقدس سوى الله تعالى وكلام الله تعالى.

لا تنادوا بعودة أشخاص من قبورهم، ولكن بإحياء قيم قرآنية ما زالت جنينية.

٢٦) «أسطورة الدنيا»

تحكي الأسطورة الشهيرة أن فارسًا دَخل قَصرا في قلعة ونَظر يمينًا ويسارًا فرأى أمامه فارسًا مُتقلدًا سَيفه وساكنًا في مَكانه.

هُرِعَ إليه مُشهرًا سيفه، فسارع الآخر إليه مُشهرًا سيفه أيضًا، ودار بينها النزال لمدة طويلة.

لم يستطع أي منهما أن يتغلب على الآخر حتى بلغ منه الجهد أقصاه فابتعد ليلتقط أنفاسه ويَسكن قليلًا.

ينظر لغريمه حذرًا، فيجده يقوم بنفس الفعل... يتعجب... ثم يشك! فيُحدث حركات مقصودة ليكتشف أنه أمام مِرآة مَسحورة وهو يصارع شَبحه في هذه المرآة... يصارع خياله وأوهامه، ولو توقف عن التخيل لاختفى الشبح واستراح.

إننا في صراعنا مع الحياة نَخدع أنفسنا بنفس الطريقة، بالغيرة، والحسد، والكبر، والغضب، والكره، والتحامل... إلخ.

كل هؤلاء فرسان شَبحية يَخلقهم خيالنا المُنْبَعث من النفس المريضة فنُجري صراعًا مع أوهام جَسدها وخلقها خَيالنا الضَعيف، تُجهدنا وتَستنزف عُمرنا وتُكدر مزاجنا، وبعد أن نَخرج خاسرين من هذه المَعارك نَكتشف أن الصراع كان على اللا شيء، وأننا حين نُوجِّه الأذى للآخر نَلْطم أنفسنا ونَطْعن

جَسَـدَنا ونُؤلم روحنا، وأن الإنسـان نَفسـه هو وقود الـصِراع الذي يَصدر منه.

لو احتكم الإنسان إلى عقله لهداه إلى إيمانه بالله ورجع إلى الآية:

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (الفرقان: 20)

وعَلـم أن أمامـه فِتنة ولا نجاة منهـا إلا بتَمْرير هذه المشـاعر الخبيثة وإزاحتها عن قلبه واستبدالها بِنَقِيضها من العفو، والحب، والإيثار، والتواضع، والحِلم،

وبهذا يستريح القلب ويدخر الإنسان جهده ويحتفظ برشده.

٢٧) «الساعة الخامسة والعشرون!»

كتبت هذه الرواية الشهيرة قبل الحرب العالمية الثانية، بهدف التحذير من القادم، «الساعة الخامسة والعشرون»، هي ساعة فوات الأوان، في العادة الساعة الرابعة والعشرين يتلوها الساعة الواحدة، فالزمن يدور والأيام تتوالى في دائرة مستمرة، ولكن عندما تأتي الساعة الخامسة والعشرون، فهي تمثل اللحظة التي تكون فيها كل محاولات الإنقاذ عديمة الجدوى، تكون أشبه بساعة القيامة.

أعجبني هذا الحوار، الذي اقتبسته من الرواية، الحديث بين يهود روس معتقلين ويقومون بأعمال شاقة، مثل حفر خنادق وعمل تجهيزات للحرب.

يقول الرجل الحكيم للشاب المتصلب في موقفه:

- إننا معشر اليهود، نمتاز بخاصية لا يجارينا فيها أي شعب من شعوب الغرب، إننا نعرف كيف نساوم ونعقد الصفقات، إن شعبنا حكيم يُقدر التراضي ويَحتقر المواقف المَغيظة، إن الذي يستطيع توفير العنزة والملفوف معًا، رجل عاقل، إن الموقف العنيد الذي تتخذه أنت خاص بالشعوب البربرية، الشعوب العسكرية، إن الأمم الراقية والمهذبة تستطيع نيل مشتهاها باتخاذ مواقف متعددة معًا، فتنتقي من بينها دائمًا...

(انتهت الفقرة المقتبسة).

ينبه الحكيم اليهودي الشاب اليهودي المتعنت في موقفه، إلى رقي «التفاوض».

تذكرني تلك الفقرة بصلح الحديبية الذي كانت شروطه في ظاهرها قاسية على المسلمين ولكنها كانت فتحًا مبينًا.

وفي غزوة الأحزاب فاوض النبي صلى الله عليه وسلم غطفان على ثلث ثمار المدينة؟ مقابل أن ينسحبوا من جيش الأحزاب الذي يحاصر المسلمين ويريد أن يُفنيهم.

لو كان هذا التفاوض الذي فيه تنازل يعتبر إثمًا ومَنهي عنه؛ لما فعله النبي الكريم.

السيرة النبوية تمتلئ بالواقعية والحكمة واللين، ثم أتساءل:

من أين أتينا بمفهوم ونفسية التصلب والتمرتس وراء مبادئ وشِعارات تتركنا بلا خيارات، نموت دونها أو ننالها! وفي كل مرة نموت، ونترك الناس وراءنا أسرى لثمرة تيبس مواقفنا وفقدنا للمرونة.

فالأمم التي لا تتفاوض تقوم قيامتها ويفوت الأوان بلا رجعة.

بدون التفاوض:

الزيجات تفشل أو تتجمد.

الفرد يخسر أو يُسحق.

الجماعات تقهر أو تقتل.

الدول تهزم أو تسحق.

التفاوض يضع في الاعتبار عوامل كثيرة واقعية.

قد يصل التفاوض لطريق مسدود ونصل لنفس النتيجة، ولكن هذا هو النادر؛ فدوما هناك وسيلة للتفاهم.

لماذا قمنا بنحت «أحجار التصلب والتمرتس وراء الحل الوحيد» من الدين!

الحل الوحيد الذي ليس معه بدائل.

نحتاج أن نضع في أعلى الصفحة عنوان «التفاوض» ثم ندرسه في مقالات وأطروحات ونضع له فلسفات تناسب الواقع.

فالإنسان الذي يُضحى بنفسه كفداء للعقائد، والشعارات، والمبادئ، يجب أن يعلم أن الحياة التي يضحي بها بسهولة سوف تكون أكثر فائدة لعقيدته، ومبادئه، وللناس، لو عاش لها وبها.

بدلًا من أن يتهور فيموت من أجلها دون تجربة ودراسة كل الحلول البديلة.

٢٨) «التعالي الأخلاقي»

أخبر صديقه أنه سيسافر في بعثة للدراسة بإحدى الدول الأوروبية، فرح صديقه وقال:

- هنيئا لك العيش سنوات في بلاد الحضارة والتقدم العلمي!

رد قائلا:

- نعم هم متقدمون علميًّا، ولكن أنا ابن الحضارة الإسلامية الخالدة والأخلاق السامية، فمهما بلغوا بعلمهم لن يصلوا إلى ميراثي الخُلُقي.

أليسوا هم القوم العراة، والسكارى، والمُتحللون من الدين؟

هؤلاء أبناء المادة وأنا ابن الروح. إنني لا أحمل همًّا سوى كيفية النجاة من خُبثهم الخلقي، ودَنَسهم الجَسدي وأن أحتفظ بثوبي طاهرًا.

ذهب والتحق بالجامعة، كان نشيطًا فانتخبه الطلاب المسلمون ممثلًا لهم في اتحاد الطلاب، ثم أرادوا أن يوفروا مكانًا للصلاة في الجامعة.

بعثوا إشعارًا إلى رئيس الجامعة بأنهم سوف يتوجهون إليه بطلب في وقت معين، وبالفعل تجمع الطلاب في مسيرة مُنضبطة هادئة وتوجهوا داخل الحرم الجامعي إلى المبنى الإداري، حيث كان رئيس الجامعة في انتظارهم أسفل الدرج. توجه رئيس الطلبة إليه وسلمه

الطلب، فوعده خيرًا، ثم انصرفوا، بعد وقت يسير كان لهم مكان للصلاة يمارسون فيه شعائرهم.

ثم يحكي لصديقه فيقول:

- الآن، أنا الذي أصبحت عاريًا وليس هم، فقد كنت أتعالى عليهم أخلاقيًّا فإذا بي أقف مذهولًا أمام احترامهم للإنسان في بلادهم.

هم مسيحيون، ومع ذلك احترموا الأقليات ولم ينظروا بعنصرية ولا حساسية.

نعم ساستهم عنصريون خارج البلاد وهذا معروف من سياستهم معنا في دولنا، ولكنهم تنزهوا في بلادهم عن فيروس العنصرية والطائفية لمعرفتهم بمدى أثره المُهلك.

تلك القصة هي نفسها قصة الصدام الذي حدث بين المسلمين والغرب في الحروب الصليبية، فقد كانت الفكرة الغربية عن المسلمين شديدة التشويه، ثم اكتشف الفرد الأوروبي أن المسافة بين ما لدى العرب من «أخلاق، وعلم، وثقافة، وتَمدن»، وبين ما لدى الغرب من «همجية، وتَخلف، وجَهل، وقَسوة» هي مسافة شاسعة وعميقة، ومن تلك اللحظة التاريخية بدأت الحضارة الغربية في الغَرْف من الحضارة والثقافة الإسلامية.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: 140).

٢٩) «قنديل أم هاشم»

من منا يذكر رواية وفيلم «قنديل أم هاشم» للأديب الرائع «يحيى حقي»؟

لا أدري لماذا كلما انفعلت بحالنا اليوم وبما نحن فيه من تيه هدفي أتذكر ذلك الطبيب الذي جاء من أوروبا وكيف واجه التيار الشعبي المتدين تدينًا ممزوجًا، بالجهل والأسطورة، ويستخدم الدين في كل شيء.

تمثل هذا في زيت «القنديل» الذي يُعلق في المساجد كمصدر لكل بركة، ويُعتقد أن له تأثير السحر على ما يمسه.

بالنسبة لابنة عمه، كان الزيت الذي يُستخدم كقطرة للعين هو مادة كاوية لبصرها.

تبكي ألمًا فيقال لها: «هذه أعراض الشفاء».

العقيدة في القنديل لا تتزعزع، فما يحدث من تقدم فمن الزيت، وما يحدث من تأخر فمن تزعزع الإيمان في القلوب ببركة الزيت، فالإيمان هو القناة التي يمر خلالها الشفاء.

اليوم المجتمع مختلف مثقف ومتعلم، لكني أرى القنديل تَنكر في قناعات متحولة.

الغريب أن ثقافة قنديل اليوم كما هي بالأمس، ثقافة شعبية تشمل «المتدين، والمتساهل، والمتحامل»، على حد سواء.

الكل مُجمع على زيت القنديل وجميعهم يُرددونه كوصفة طبية لحالنا.

«الخلل بسبب بعدنا عن الدين، والحل في العودة إلى الدين».

وكيف توصف شعوبنا بالبعد عن الدين، والإسلام في بلادنا يصبغ كل حياتنا وهو على لسان ولباس الجميع؟ أم أننا -دون وعي منا- أمسكنا بالدين في يد وبالقنديل في اليد الأخرى؟

الدين مَظهر وجَوهر، والدين متين فلابد من الإمساك به من جميع جوانبه كي لا نكون مثل العميان الذين تحسسوا الفيل، فأمسك أحدهم الأذن، وأمسك الآخَر القدم، وأمسك الأخير بالخرطوم، ثم قام كل منهم بوصف الفيل كله من خِبرته بالجزء الذي وقع في يده!

من يريد العودة للدين يجب أن يعلم أن للدين ثمار: العفو، والأخلاق، والمعاملة الحسنة، والتسامح، وصفاء الصدر، وكل ما يَرقى بالإنسان والإنسانية، فإن لم يعمل فيك الدين هذا العمل... فتش عن القنديل!

الدين حين يُستخدم في كل شيء يُهان ويصد الناس عنه، فليتنزه الدين عن الهبوط للتدخل في كل صغير وكبير.

مثل المدير الذي يتدخل في كيفية عمل الساعي للقهوة وبقية المشروبات فيتدخل في تفاصيل كل شيء مع أن وظيفته أرقى وأسمى من هذه الصغائر وتدخله فيها يهينه ويربك الموظفين.

أتذكر كلمة «عبد الفتاح مورو» تعليقا على شعار «الإسلام هو الحل»: إنه مثل من يعاني مرضًا فيقال له «المستشفى هي الحل»، فالإسلام هو الحل كعنوان، ولكن هذا الجواب يحتاج تفصيلًا طويلًا جدًّا ودقيقًا.

٣٠) «التسبيح من رحم المعاناة»

خلق الله تعالى الملائكة من طبيعة واحدة نورانية.

خلق الإنسان من طبيعتين.

لهذا لا يقال عن الملائكة في العالم العلوي معصومة، فلا يخطر أبدًا ببالها المخالفة.

أعربت الملائكة عن دهشتها من قرار خلق آدم:

﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ... ﴾ (البقرة: 30).

فكرت في أن الغرض من خلافة بني آدم هو التسبيح: بينما هم يسبحون بلا فساد ودماء.

ما زال كثير من المسلمين يقعون في هذا التصور الخاطئ، يظنون أن الهدف من الإنسان هو ممارسة العبادة الطقوسية التلقينية فقط.

سجد الملائكة لآدم، وكان مشهدًا غيبيًّا مثيرًا للخيال، فنحن لا نعرف عدَدَهم وحَجمهم عندما سجدوا لآدم عليه السلام في حضرة رب العالمين، فخيالنا فقط عن جبريل عليه السلام وحده يُعتبر خيالًا هائلًا.

﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴾ (الحجر: 30).

هل تخيلت ملائكة مختلفة في أشكالها وأحجامها بعدد جمهور الاستاد الرياضي يسجدون لآدم؟

كم يكون آدم فخورًا وشاعرًا بتضخيم قُدره وقُدرته؟

ثم ماذا بعد؟

تـرك الله تعالى آدم يخـوض التجربة: يُختبر... يَختـار... يُخالف الأمر الإلهي... يُخطئ.

ثم يلهمه التوبة ويعينه عليها.

لم يسعفه ويَنفعه التعلم النظري وحده.

ورغم العناية الإلهية، لم يُلقن اللهُ آدم أثناء الاختبار.

لم يُمارس عليه الخشية من الخطأ والمخالفة.

كأن تلك الحكمة من خلق الإنسان الثنائي الطبيعة.

الإنسان تأتي عبادته وإيمانه من رحم التجربة والمعرفة.

وليس فقط من العبادة الطقوسية.

مكتوب على الإنسان أن لا يفوز إلا بما يعاني .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ (البلد: 4)

ومن رحم الكَبَد تثرى التجربة الإنسانية وتتخصب.

وتتحقق إنسانية الإنسان حتى يبلغ أقصاه.

هذا الدرس الأول لآدم ولبني آدم.

درس لهـؤلاء الذين يمارسـون وصاية على الإنسـان فيحجزون عنه الأفكار.

ويخشون انزلاقه وضلاله.

يحجبون عنه التجربة.

التجربة التي تولد المعاناة ومنها يُولد ويُثمر الإيمان.

لم يخلقنا كي نسبح مثل الملائكة بالتلقين والطبيعة الواحدة.

بل بالممارسة، والإيمان عن اختيار من بين بدائل.

هذا هو الإنسان الذي أراده الله خليفة له.

وليس الإنسان الذي يولد في حضانة التلقين.

مثل الأطفال المبتسرين في حضانة زجاجية.

يعيش فيها ويموت فيها بلا تجربة ولا معاناة.

بلا اختيار حقيقي.

يعيش بنفسية الحمد لله على نعمة الإسلام ورث أبائي وأجدادي.

وما هو ميراث للفخر بل ميراث لنشر الصلاح والإصلاح.

٣١) «التفتيش عن الثعابين»

يقول الصوفيون: التخلية قبل التحلية.

بمعنى أنه لابد من مجاهدة النفس أولًا فتتخلص من كل المعاصي والضعف البشري، ثم تصبح بعدها النفس محلًا للتطهر، والتزكي، والتعود على أفعال الخير.

ضربوا لذلك مثالا: «الإناء المتسخ والممتلئ بالثقوب والصدأ، مهما وضعت فيه من العطور لن يمتلئ وما سيسكب فيه سوف يتسخ ويتلوث من الإناء».

فلابد من معالجة الإناء قبل صب العطور فيه...

لست مقتنعا بتلك الفكرة!

لأن الإنسان ليس إناء، ولا يتسخ، ولا يمكن أن يتبرأ من طبيعته المزدوجة التي فيها القابلية لفعل الخير والشر، ويكون هو نفسه محلًا للصراع بينهما.

أرى تلك المقولة تكرس العيوب بدلًا من أن تهزمها، والتجربة تشهد على ذلك.

يقع الإنسان أسيرًا لمعصية قوية فيستهلك عمره كله في صراع معها دون إحداث تقدم... ينهزم نفسيًّا فتؤثر على أعماله الأخرى فيقوم

بهـا بروح المهزوم والممتلـئ بالخزي ويكون الفشـل والهزيمة صِبغة وجدانه.

يقول الإمام ابن القيم:

«في سـيرك لوجهتك يعرض لك عوائق من مسـتنقعات، وأحراش، وثعابـين. يُقاس نجـاح سـعيك بقدر اقترابك مـن وجهتك وبقدر قـصر وقـت الوصـول. عندمـا يعترض مسـيرك مسـتنقع، تجتهد في العبـور من فوقـه أو الدوران حوله. إن لم يكن هناك وسـيلة للعبور، فسـوف تضطر أن تجفف المسـتنقع. هـذا يحتاج وقتا، لكن لا سـبيل سـوى ذلك. كذلك الحيات إن وجدت حيـة فالأفضل هو الدوران حولها لتكمل سيرك، أو تضطر أن تكافحها حتى ترحل عن طريقك.

مـن يواجـــه مسـتنقعًا فيقـــوم بتكريـس وقتـه لتجفيـف كل المسـتنقعات،أو يواجه حية فيقـوم بتكريس جهده للتخلص من كل الحيات،يسـتنزف جهـده ووقته بلا منطق ولن ينجز أبدًا، وسـيقعد بدلًا من أن يسافر لهدفه.

لهذا في طريق الحياة لا تنظر إلا إلى السير والوصول.

افعل الخير أينما وجدته يَنهزم الشر.

افعل الطاعة كلما سَنحت لك فتَنسحب المعصية.

في القرآن الكريم:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ سـورة الإسراء: 81)

فالباطل يُذهبه الحق، والشر يُذهبه الخير، والسيئة تَمحوها الحسنة، وبناء الحق هو هدم للباطل.

يقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«استعن بقوتك على ضعفك! فاشغل نفسك بعوامل الخير فيك واستخدمها لتعوض ضعفك أو لتحوله إلى قوة».

٣٢) «بداية المشي على الوجه»

في أواخر الثمانينيات، دُعي أحد القيادات الإسلامية الرائدة لحضور لقاء مع الجالية الإسلامية في أمريكا، كان قلبه ممتلئًا بالفرح والتفاؤل، فهذه المرة الأولى التي يلتقى فيها بالجيل الجديد من الشباب، الجيل الذي حرمه السجن عشرين عامًا من الالتقاء به والتعرف عليه، جيل يتطلع أن يستمع لقصة كفاحه في حرب 1948 في فلسطين وتجربته مع السجن الطويل.

وها قد خرج من التجربة القاسية والثقيلة!

وها قد جربت الشعوب كافة الأفكار!

وها قد هبطت عليهم هزيمة 1967 كالصاعقة!

وها قد تلاها نصر أكتوبر المؤمن!

وها قد أفسح المجال للإسلام ليكون هو الحل!

فالعقود الماضية قامت بتنحية الحل الديني، وأفسحت المجال في الوطن العربي للأفكار:

الماركسية، والناصرية، والقومية، والعلمانية، والليبرالية، والوجودية...

وكان الرد فعل العفوي من الشعوب العربية هو الدوران نصف دورة، فأصبحت راية الدين هي إمامهم، فاستراح الجميع لهذا الأمل، وشعروا أنهم سوف يحوزون المفتاح السحري الذي سيمسح الإهانة ويهتدي بالرشاد.

نظر الشيخ من بين الكواليس إلى القاعة، كانت مكتظة بالآلاف من الشباب الذي أتى من كل أنحاء الولايات الأمريكية، القاعة لا يوجد بها موضع قدم، ويغلب عليها اللون الأسود والأبيض!

فالذقون سوداء... والخِمارات بيضاء.

رغم انبهاره بالمشهد وفرحه به، إلا أنه شعر برجفة مختلطة بالغربة، ولم يدرك السبب.

جرفته الأحداث الاحتفالية وخرج للجمهور.

استمع الجمهور له بكل مشاعر الإجلال والتقدير، فالأنظار مسلطة عليه، والقلوب مفتوحة له، وهو النجم أمام الجميع.

بدأ الحديث عن ذكرياته في حرب فلسطين، أخذ يحكي بعض الحكايات التي أخذت منه دقائق قليلة، ثم انزلق إلى وصف لقطات من السهر على الجبهة في فلسطين، فأفلتت منه في عفوية تلك الكلمات:

- «لقد كنت أنا والمجاهدون نتسلى في الليل على الجبهة بترديد أغاني أم كلثوم»!

هنا ضجت القاعة بالاستنكار وهاج الشباب والشابات وانطفأ بريق القائد المجاهد في لحظات، وأحس بانصراف انتباه الجمهور عنه، وتغير سمات وجوههم لتصبح غاضبة ومُحبَطة، فختم المحاضرة سريعًا، وانصرف وهو غير مدرك لسبب تلك الوحشة التي هبت وعزلته تمامًا عن الجمهور!

ولكنه فهم فيما بعد.

ونحن أيضا فهمنا فيما بعد.

الفهرس

المقدمة..... 5

«أخلاق الأتوبيسات» 7

«الكلب اللي بيهوهو»..... 12

«سؤال على عصبٍ مكشوف» 15

«هموم السجين» 19

«الميراث في القرآن الكريم» 22

«حسب الله فيلسوفًا!» 28

«القصير القزعة» 33

«مغامر رغم أنفه!» 36

«بين المستحيل والممكن»..... 43

«القلب المفتوح»..... 47

«الإنسان داء ودواء»..... 52

«تصارع القيم وتساندها»..... 58

«بين الفَسيلة وثُقب الأوزون» 65

«العزاء على الجبَّانة» 71
«الأيدلوجيا» 76
«الإنسان السلعة!» 81
«ولا يتبقى لي سوى الصابونة!» 85
« إذا الإيمان ضاع!» 87
«اللون الشفاف» 90
«بشره بالنار!» 92
«افتح يا سمسم!» 95
«ذيل، ورأس، وحبل» 97
«الظاهرة العدوية» 100
«أجسامنا سبقت أرواحنا» 103
«يوم تاهت القيمة القرآنية وحل محلها الفرد» 105
«أسطورة الدنيا» 108
«الساعة الخامسة والعشرون!» 110
«التعالي الأخلاقي» 113

«قنديل أم هاشم» 115
«التسبيح من رحم المعاناة» 117
«التفتيش عن الثعابين» 120
«بداية المشي على الوجه» 123

أيمن جبر

أخلاق الأتوبيسات

هل سبقت أجسامُنا أرواحَنا؟ لماذا أصبحت أخلاقنا أوتوبيسية؟ لماذا أغلب الأسئلة على عصب مشكوف؟ هل الحل هو الصفع على الوجه؟ هل هناك محاولات قوية لتحويل الإيمان من عقيدة إلى هواية مثل كرة القدم والشطرنج؟ هل ترتيب القيم صلب لا يتبدل؟ متى كانت بداية المشي على الوجه؟ لماذا انجذب وعينا للمستحيل وتاه عن الممكن؟ كيف تصف معاناة وخبرة الوقوف على شفا الرحيل عن الدنيا؟ هل الإنسان هو فقط داء الإنسان ودواؤه؟ هل نحن غارقون في المغامرة ونظن أننا على شط الأمان؟ هل هناك إجابات تشفي الصدور لهذه الأسئلة؟

النخبة

أيمن جبر
أخلاق الأتوبيسات
دار النخبة